بلاغة أسلوب الحوار في وصية سعيد بن العاص

(أشبه العرب لهجة برسول الله ﷺ)

إعداد

د/ منى طه الداودي محمد

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

monamohammed٢٢٠٢.el@azhar.edu.eg

١٤٤٥هـ = ٢٠٢٤م.

ملخص البحث

جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مطالب، تليها خاتمة، وفهارس.

١ـ المقدمة: وتحدثت فيها عن أهمية موضوع البحث، وأسباب اختياره، وخطته، والمنهج المتبع في دراسته.

٢ـ التمهيد: واشتمل على ثلاثة أمور: أولًا: مفهوم الحوار وبيان أهميته. ثانيًا: نبذة عن قائل الوصية (سعيد بن العاص). ثالثًا: نص الوصية وتوثيقها.

٣ـ المطلب الأول: بلاغة أسلوب الحوار في وصية سعيد لأبنائه بطاعة أخيهم عمرو.

٤ـ المطلب الثاني: بلاغة أسلوب الحوار في بيان ذكاء سعيد وحيلته مع أبنائه.

٥ـ المطلب الثالث: بلاغة أسلوب الحوار في الوصول إلى اقتناع الأبناء بوصية أبيهم.

٦ـ خاتمة البحث: وتشتمل أهم النتائج التي توصل إليها.

٧ـ الفهارس: وتحتوي على فهرس للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

الكلمات المفتاحية: أسلوب ـ الحوار ـ وصية ـ سعيد بن العاص ـ أبناء.

Summary Research

The research came in an introduction, a preface, and three sections, which stand in conclusion and indexes.
١- Introduction: It talked about the importance of the topic, the reasons for choosing it, the research plan, and the method used in studying it.

٢- The preamble includes: three demands: The first requirement: the concept of dialogue and its significance. Second, about The Lord of the Wise». Third: Text and authentication of the commandment.

٣- The first topic: Exquisite dialogue in a happy will for his children to obey, their brother Amer.

٤- The second topic: the eloquence of the dialogue style in Saeed's intelligence and resourcefulness with his children.

٥- The third topic: the rhetoric of dialogue on the way to obtain the commandment of their father.
٦- Conclusion of the research: It contains the most important results reached.
٧- Indexes: It includes an index of sources and references, and another for topics.

Keywords: style, dialogue, commandment, Sa'id Ibn El-Aas, sons.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وبحوله وقوته أستعين، وأصلي وأسلم على المصطفى أشرف الأنبياء والمرسلين، الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين، وعلى آله وصحابته الكرام والتابعين، ومن اقتفى أثره واهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الحوار من أفضل الوسائل وأسرعها في التواصل مع الناس؛ إذ هو أُولَى خطوات البحث عن قاسَم مشترك بين الأطراف المتحاورة وأَهَمها؛ بغية الإقناع بفكرة ما، أو البحث عن حلول لمشكلة ما، أو ما شابه ذلك.

وبناء الكلام على أسلوب الحوار من طرائق التعبير البليغة، ووسائل الأداء الرفيعة التي يشارك فيها المخاطب المتكلم، بأسلوب مهذب، وطريقة جذابة تقوم بدورها في إبراز وجهة نظر بعينها، واستدعاء البراهين التي تؤيدها، وتحري العدل والإنصاف والحيادية، مع إبداء الرأي وحرية التعبير، والحكم في نهاية الحوار؛ وذلك بأسلوب يصور حال المتحاورين، وينبئ عن قناعاتهم، فتحاكي العبارات مكنونات النفوس، وتضارع الجمل والكلمات طباع وأحوال قائليها، وهذا يدل على أن أسلوب الحوار عامل أساسي من عوامل استجابة الطرف الآخر، ومدى اقتناعه أو تشبثه برأيه.

كما يعد أسلوب الحوار علامة على رقي الحضارات وتطوير الذات، وسلوك المسارات السليمة التي منشؤها تصحيح المفاهيم والأفكار؛ بغية الإسهام في تقارب الشعوب، والتآلف بين أفراد المجتمعات.

وموضوع البحث يقوم على أساس إبراز بلاغة أسلوب الحوار في وصية سعيد بن العاص، وأثره في الترابط بين المعاني والألفاظ التي برزت في ثوبه، انطلاقًا من الكلمة وما جاورها، ثم الجملة وأختها، حتى يكتمل النص في صورة تتفاعل فيه العبارات، وترسم حوارًا يؤدي الغرض الذي سيق لأجله، والمقام الذي استدعاه.

وقد اتَّخَذَتْ وصية سعيد بن العاص من أسلوب الحوار منهجًا، ومن مشاركة

وفاعلية الطرف الآخر سبيلًا للإقناع؛ لذا آثرتُ هذا الموضوع الذي جاء بعنوان: [**بلاغة أسلوب الحوار في وصية سعيد بن العاص (أشبه العرب لهجة برسول الله ﷺ)**] ليكون ميدانًا للدراسة في هذا البحث.

وجاءت أسباب اختيار الموضوع كالآتي:

١ – جِدّة الموضوع فلا أعلم بحثًا بلاغيًا تناول وصية سعيد بن العاص بالدراسة والتحليل.

٢ – مكانة سعيد بن العاص ومنزلته بين الصحابة، ويكفيه شرفًا أنه أكثر الناس شبهًا بلهجة رسول الله ﷺ.

٣ – ما تميز به أسلوب الوصية من فخامة وجزالة، وما حواه من وسائل الإقناع والتأثير المتعددة، على نحو يبرز أهم الأسس الذي ينبغي أن يكون عليها الحوار البَنَّاء؛ حتى يؤتِي ثمرته المرجوة من الوصول في نهايته إلى الحق، واقتناع أحد الطرفين بوجهة نظر الطرف الآخر.

٤ – قيام الوصية من أولها إلى آخرها على أسلوب الحوار الذي يقوم على إشراك الطرف الآخر في الحوار، ويجعله ركنًا فعّالًا مؤثِّرًا فيه، يمكن أن يقلب ميزان الحوار لصالح فكرته، إذا استطاع إقناع الطرف الآخر والتأثير فيه.

٥ – الكشف عن الأسرار البلاغية والخصائص الأسلوبية التي برز في ثوبها أسلوب الحوار في هذه الوصية، ونادت عليها تراكيبه، ابتداء من الحروف والكلمات حتى الجملة وأخواتها.

وقد انتظمت خطة البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة مطالب، تقفوها خاتمة وفهارس؛ أما المقدمة فقد اشتملت على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والخطة التي انتظمها البحث، والمنهج المتبع في الدراسة، وجاء التمهيد مشتملًا على ثلاثة أمور:

- **أولًا**: مفهوم الحوار وبيان أهميته.

- **ثانيًا**: نبذة عن قائل الوصية: (سعيد بن العاص).
- **ثالثًا**: نص الوصية وتوثيقها.

وجاءت مطالب البحث بتقسيم نص الوصية على النحو الآتي:

- **المطلب الأول**: بلاغة أسلوب الحوار في وصية سعيد لأبنائه بطاعة أخيهم عمرو.
- **المطلب الثاني**: بلاغة أسلوب الحوار في بيان ذكاء سعيد وحيلته مع أبنائه.
- **المطلب الثالث**: بلاغة أسلوب الحوار في الوصول إلى اقتناع الأبناء بوصية أبيهم.

ثم تأتي خاتمة البحث وتحوي أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، ثم الفهارس، وتشتمل على فهرس للمصادر والمراجع وآخر للموضوعات.

وقد ارتسم هذا البحث لنفسه المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يقوم على حصر مواطن الحوار في الوصية واستقصائها، ثم يعمد إلى تحليلها تحليلًا بلاغيًا يكشف عن وسائله وطرقه، ويميط اللثام عن فنونه وأسراره، ويبرز أهم سماته وخصائصه، ويظهر أثره في الإقناع والتأثير.

أسأل الله الإخلاص والقبول والتوفيق لما يحب ويرضى، وأن يتجاوز عما غفل عنه القلب أو زلّ به القلم.

د/ منى طه الداودي

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات

الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

التمهيد

أولًا: مفهوم الحوار وبيان أهميته

الحوار في اللغة: من الحَوْر: وهو الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، وكل شيء تغير من حال إلى حال، فقد حار يحور حورا، وفي الحديث: «وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ، أَوْ قَالَ: عَدُوُّ اللهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْه»(١)، أي: رجع إليه ما نُسِبَ إليه. والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة(٢).

والغرض من مراجعة الكلام: الوصول إلى نتيجة مقنعة يرتضيها الطرفان، وبها يكون الحوار حسنًا، قال الزمخشري: «حاورته: راجعته الكلام، وهو حُسن الحوار»(٣).

أما الحوار في الاصطلاح: فهو «مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين أو أكثر بصورة متكافئة، ويغلب عليه الهدوء، والرغبة في الوصول إلى الحق، والبعد عن التعصب والخصومة»(٤).

وقيل إن الحوار: «هو عملية تبادل الأفكار والآراء بين محاورين اثنين أو أكثر؛ لغرض بيان حقيقة مؤكدة أو رأي معين، قد يتقبله الآخر وقد يرفضه، فإن ارتضاه فيكون حوارًا قصيرًا، أما إذا خالفه فيمكن أن يستمر الحوار بينهما لكي يقنع الطرف الأول الطرف الآخر، وقد لا يقتنع الطرف الآخر، وحينئذ تبقى مسألة الخلاف قائمة بينهما،

(١) صحيح مسلم، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه، ١/ ٧٩، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) ينظر لسان العرب لابن منظور، حور، ٤/ ٢١٧، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

(٣) أساس البلاغة للزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ص٢٢٠، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

(٤) الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ص٦، إعداد: يحيى بن محمد حسن بن أحمد زمزمي، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، رمادي للنشر، الدمام، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

مما يؤدي إلى استمرار الحوار إلى أوقات أخرى»[1].

وقد جاء لفظ الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع: الأول في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: ٣٤]، والثاني قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: ٣٧]، والثالث قوله تعالى: ﴿ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١]. والظاهر من هذه المواضع أن الحوار هو مراجعة الكلام، وتداوله بين الطرفين أو الأطراف المتحاورة، والأخذ والرد فيه[2].

وإذا كان الحوار بمعنى المراجعة في الكلام، والمراجعة بمعنى الرد على سبيل الدفع والمخالفة، فإنه لا يكون من الكلام حوارًا إلا ما تحقق فيه قدر من الخلاف في الرأي بين المتحاورين، وعليه فإن بعض الأسئلة والأجوبة التي تُعَدُّ من الحوار ولا يتحقق فيها المراجعة لا تكون حوارًا إلا على سبيل التسامح[3].

أهمية الحوار:

يعد الحوار وسيلة فعَّالة في الدعوة إلى دين الله، وطريقًا مختصرًا لتقريب وجهات نظر العلماء والدعاة بهدف توحيد الأمة الإسلامية، والقضاء على كثير من الخلافات القائمة بين الفئات المختلفة، بالإضافة إلى كونه من أعظم الطرق دفاعًا عن الدين ورد شبهات الطاعنين[4].

كما أن الحوار يعد أداة التقويم الذاتي والتصحيح البنائي، وهو وسيلة مشتركة

(١) هندسة الحوار والإقناع، د/ مصطفى يوسف كافي، ص١١، دار الحامد للنشر، الطبعة الأولى، ١٤٣٦ه، ٢٠١٥م.

(٢) ينظر الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة ص٢٠.

(٣) ينظر الحوار في القرآن الكريم خصائصه التركيبية وصوره البيانية د/ محمد إبراهيم شادي، ص١٣، ١٤، دار اليقين، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٣١ه، ٢٠١٠م.

(٤) ينظر المرجع السابق ص٦.

تتجمع فيه الآراء والمسائل، ويستخلص منها النتائج، وهو إحدى طرق النصح والشورى والتعاون على البر والتقوى، ويمكن القول: إن الحوار يتسم بالتربوية والمنهجية عندما تروَّض الأنفس على قبول النقد والمراجعة، وتتسع الصدور للحوار والمناقشة(١).

ولذلك فمن سمات المتحاورين؛ أن يكون لدى كل منهما الاستعداد لتقبل الرأي الآخر، إذا استطاع أن يؤيد كلامه بالبراهين الساطعة والحجج الدامغة، فإن تَمَسَّك كل من المتحاورين برأيه، وتشبث كل طرف بمعتقده، فلا يمكن أن يُعَد هذا من قبيل الحوار البنَّاء.

أما الحوار في فن الوصايا فيمكن القول: إن مدى جدواه وفاعليته تتوقف بشكل خاص على عدة عوامل، من أهمها: إخلاص الشخص المحاور، وصدقه، وأمانته في تقديم النصح والتوجيه، وإيثار الأسلوب الراقي في التحاور، ومحاولة جذب الطرف الآخر واستمالته بالطرق المختلفة والأدلة المتنوعة التي من شأنها أن تقنعه، وتزيد إيمانه بفكرة الطرف الآخر، كما أن الحيادية والعدالة والإنصاف في الحوار من أهم الطرق التي تعين على كسب الطرف الآخر، وجعله يشعر بالأمان تجاه مُحَاوِرِه؛ لأن الغاية من الحوار ليست الانتصار الشخصي، وإنما الوصول إلى حل مشترك ترتضيه الأطراف المتحاورة قدر الاستطاعة.

كما أن تنوع أسلوب الحوار، وتعدده بين استفهام وإخبار، وأخذ ورد في الكلام، والاستماع بشكل جيد من أهم الأمور التي تؤثر في إتمام الحوار بشكل يُرْضِي المتحاورين.

ولعل من أبرز أهداف الحوار: إظهار الحقائق وتدعيمها بالأدلة والبراهين، والتعاون والتفاهم للخروج من المشكلة قدر الإمكان، والترقي بالذات لقبول الرأي الآخر

(١) ينظر الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية ص٢٨، تأليف/ أحمد بن عبد الرحمن الصويان، دار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

والتخلص من الاستبداد الفكري، والتلاقح الحضاري؛ فكل حضارة لا تستغني عن الحوار في تطوير ذاتها، وتصحيح المفاهيم والأفكار المشوهة التي لن تندحر إلا في أروقة الحوار الحر؛ من أجل الإسهام في تقارب الشعوب والأمم، وحل النزاعات والخلافات بين الأفراد والمجتمعات، وهذه هي بعض أهدافه بصفة العموم(١).

وتتحقق الغاية المرجوة من الحوار والهدف منه عند استطاعة المتحاورين إدارة الحوار بشكل ناجح، يُظهِر تَمَكُّن الأطراف المتحاورة من مهارة الحوار، ويؤدي الحوار ثمرته التي تعكس مدى ثقة الأطراف المتحاورة بأنفسهم وقدراتهم.

وهناك آداب يلزم مراعاتها في الحوار؛ حتى يكون الحوار بَنَّاءً متميزًا ناجحًا، منها(٢): الإخلاص والتجرد في طلب الحق، وعدم اتباع الهوى، "وليكن قَصْده في نظره إيضاح الحق وتثبيتُه دون المُغَالبة للخصم"(٣) ومنها: عدم الانتصار للنفس والتعاظم على الآخر، واستعراض القدرة على الغلبة، قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «ما ناظرتُ أحداً قطّ على الغَلَبة؛ وبِوُدِّي أنّ جَميع الخَلْق تعلّمُوا هذا الكتاب ـ يعني كتبه ـ ولا يُنسب إليّ شيءٌ منه"(٤) ومنها: الحذر من الجدال؛ فإنه من الآفات التي تنتهي بالحوار إلى الخصومة والفُرْقَة، ومنها: التحلي بالهدوء وعدم رفع الصوت؛ حتى لا يتحول الحوار إلى صراع، ومنها: عدم اتهام النِيَّات، والطعن في المقاصد؛ فإنه سبيل لقطع كل طرق التفاهم، وإنهاء الحوار بين الأطراف، وينبغي في الحوار مراعاة الفروق الفردية واختلاف العقليات، ففي الأثر عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ،

(١) ينظر هندسة الحوار والإقناع ص١٥ وما بعدها.

(٢) ينظر الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية ص٧٧ وما بعدها.

(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، ٢/ ٤٨، تحقيق: عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢١ه.

(٤) مناقب الشافعي لأبي بكر البيهقي، ١/ ١٧٣، تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٠ هـ، ١٩٧٠ م.

أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُه؟»[1]. إلى غير ذلك من الآداب والضوابط التي يضيق البحث عن حصرها.

(١) صحيح البخاري، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا، ١/ ٣٧، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

ثانيًا: التعريف بقائل الوصية: سعيد بن العاص[1]

(أشبه العرب لهجة برسول الله ﷺ)[2]:

هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، وجَدّه المعروف بأبي أحيحة، ويقال له: ذو التاج، وهو من أشراف قريش، وكان إذا اعْتمَّ بمكة لا يَعْتَم أحد بلون عمامته؛ إعظامًا له.

وأم سعيد هي أم كلثوم بنت عمرو بن عبد الله بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن ملك بن حسل بن عامر بن لؤي العامرية.

وقد ولد سعيد بن العاص عام الهجرة، وتوفي النبي ﷺ وعمر سعيد تسع سنين أو نحوها، وقُتِل أبوه العاص يوم بدر كافرًا، قَتَله علي بن أَبِي طالب، قال عمر بن الخطاب: رأيت العاص بن سعيد يوم بدر يبحث التراب عنه كالأسد، فصمد له عَلِيّ فقتله.

وقال عمر بن الخطاب يومًا لسعيد بن العاص: لم أقتل أباك، وإِنما قَتَلْتُ خالي

---

(١) ينظر ترجمة سعيد بن العاص: الطبقات الكبرى لابن سعد (ت: ٢٣٠هـ)، ٥/ ٢١، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ، ١٩٩٠م، وأسد الغابة أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠ هـ)، ٢/ ٤٨١، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤ م، وسير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي، ٣/ ٤٥٥، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥م، والوافي بالوفيات للصفدي (ت: ٧٦٤هـ)، ١٥/ ١٤٢، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت،١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢ ه)، ٣/ ٩١، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.

٢() كتاب المصاحف لابن أبي داود السجستاني (ت: ٣١٦هـ)، ص١٠٢، تحقيق: محمد بن عبده، الناشر: الفاروق الحديثة، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م. وينظر أيضا سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٤٧، والوافي بالوفيات ١٥/ ١٤٢، والإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٩٠.

العاص بن هشام، وما أَعْتَذِرُ من قَتْل مُشرك، فقال له سعيد: ولو قَتَلْتَه لكنتَ على الحق، وكان على الباطل، فتعجَّب عُمَر من قوله.

قال سعيد بن عبد العزيز الدمشقي: إن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص، لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله ﷺ.

وكان سعيد من أشراف قريش وأجوادهم وفصحائهم، وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان بن عفان، واستعمله عثمان على الكوفة بعد الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

وغزا طبرستان فافتتحها، وغزا جرجان فافتتحها، سنة تسع وعشرين أو سنة ثلاثين، وانتقضت أذربيجان، فافتتحها في قول، وفيه يقول الفرزدق:

تَرَى الغُرَّ الجَحَاجِحَ مِنْ قُرَيْشٍ إِذَا مَا الأَمْرُ ذُو الحَدَثَانِ عَالاَ

قِيَامًا يَنْظُرُوْنَ إِلَى سَعِيْدٍ كَأَنَّهُمُ يَرَوْنَ بِهِ هِلاَلا

ولما قُتل عثمان لزم سعيد بن العاص بيته، واعتزل الفتنة، فلم يشهد الجمل ولا صفين، فلما استقر الأمر لمعاوية أتاه، وله مع معاوية كلام طويل، عاتبه به معاوية على تخلّفه عنه في حروبه، فاعتذر هو، فقبل معاوية عذره، ثم ولّاه المدينة، فكان يوليه إذا عزل مروان عن المدينة، ويولي مروان إذا عزله.

وكان سعيد أميرًا، شريفًا، حازمًا، عاقلًا، حليمًا، وقورًا، جوادًا، وكان إذا سأله سائل، وليس عنده ما يعطيه، كتب به دَيْنًا إلى وقت مَيْسَرته، وكان عليه ثمانون ألف دينار، ولما حضرته الوفاة، قال لبنيه: أيكم يقبل وصيتي؟ قال ابنه عمرو: أنا يا أَبت. قال: إن فيها وفاء دَيْني، قال: وما دينك؟ قال: ثمانون ألف دينار. قال: وفيمَ أخذتها؟ قال: يا بني في كريم سددتُ خُلَّته، وفي رجل جاءني ودمه ينزوي في وجهه من الحياء، فبدأته بحاجته قبل أن يسألنيها.

فوفاها عنه ولده عمرو الأشدق، حين باع منزله وبستانه إلى معاوية بثلاثمائة ألف

درهم، وقيل: بألف ألف درهم.

وكان سعيد بن العاص يجمع إخوانه كل جمعة يوما فيصنع لهم الطعام، ويخلع عليهم، ويرسل إليهم بالجوائز، ويبعث إلى عيالاتهم بالبر الكثير، وكان يبعث مولى له إلى المسجد بالكوفة في كل ليلة جمعة ومعه الصرر فيها الدنانير، فيضعها بين يدي المصلين، وكان قد كثر المصلون بالمسجد بالكوفة في كل ليلة جمعة.

قال ابن عمر جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ببُرد فقالت إني نويت أن أعطي هذا الثوب أكرم العرب. فقال: أعطيه هذا الغلام ـ يعني سعيد بن العاص وهو واقف ـ فلذلك سميت الثياب السعيدية، وقال معاوية: لكل قوم كريم، وكريمنا سعيد بن العاص.

وقد روى سعيد عن: عمر، وعائشة، ولم يَرْوِ عن النبي ﷺ، وحدَّث عنه: يحيى وعمرو الأشدق، وعروة وسالم بن عبد الله.

وتوفي سعيد بن العاص سنة تسع أو ثمان أو سبع وخمسين، وانقطع عقب أبي أحيحة إلا من سعيد هذا، وقد قيل: إن خالد بن سعيد أعقب أيضا.

ثالثًا: نص الوصية وتوثيقها

لما وُلِدَ لسعيد بن العاص ابنه عمرو وترعرع، تَفَرَّس فيه النجابة، وكان يُفَضِّله على ولده، فجمع بَنِيْه، وكانوا يومئذ أكثر من خمسة عشر رجلا، ولم يَدْعُ عَمْرا معهم، وقال:

«يا بَنِيَّ، قد عَرَفتم خبرةَ الوالد بولده، وإن أخاكم عمرًا لذو هِمَّة واعدة، يسمو جَدُّه، ويَبْعُد صِيته، وتشتد شكيمَتُه، وإني آمركم إن نزل بي من الموت ما لا محَيص عنه، أن تُظَاهِروه وتُؤازِروه وتُعَزِّروه؛ فإنكم إن فعلتم ذلك يتألفْ بكم الكرامَ، ويخسأ عنكم اللئامَ، ويلبسكم عِزًّا لا تُنْهِجُه الأيام».

فقالوا جميعًا: «إنك تُؤْثِره علينا، وتحابيه دوننا»

فقال: «سأوريكم ما سَترَه البغيُ عنكم» وصرفهم.

ثم أمهلهم، حتى ظنَّ أنْ قد ذَهِلوا عما كان، وراهق عمرو البلوغ، واستدعاهم دون عمرو، فلما حضروا قال: «يا بَنِيَّ، ألم تروا إلى أخيكم عمرو؟ فإنه لا يزال يُلْحِفُ في مسألتي مالي، فَأَحُشُّ عيله لصغره، وَأُحَسِّبُه بالشيء دون الشيء من مالي إلى أن اسْتَثْبَتُّ أن أمَّه باغيته على ذلك، فزجرتها فلم تكفف، وهذا مَخْرَجُه الآن من عندي، جاء يسألني الصَّمْصَامة، كأنْ لا ولد لي غيره، وقد عزمتُ على أن أُقَسِّم مالي فيكم دونه؛ لتعلم أمُّه من يكيد».

فقالوا كلهم: يا أبانا هذا عملُك بإيثارك له علينا، واختصاصك إياه دوننا، فقال: «يا بني، والله ما آثرته دونكم بشيء من مالي قطُّ، ولا كان ما قلتُه لكم إلا اختلافا تساهلتُ فيه؛ لما أمَّلته من صلاح أمركم».

ثم قال لهم: ادخلوا المِخدع، فدخلوا المخدع.

ثم أرسل إلى عمرو فأحضره، فلما حضر قال: «يا بُنَيَّ؛ إني عليك حَدِبٌ مشفق؛ لصغر سنك، ونفاسَة إخوتك على مكانك مني، وإني لا آمن بغتة الأجل، ولى كنزٌ ادخرته لك دون إخوتك، وها أنا مُطْلِعك عليه، فاكتم أمره».

فقال: «يا أبتِ، طال عُمْرك، وعلا أَمْرك، إني لأرجو أن يُحْسِنَ الله عنك الدفاع، ويطيلَ بك الامتاع، فأما ما ذكرتَه من شأن الكنز، فما يعجبنِي أن أقطع دون إخوتي أمرًا، وأزرع في صدورهم غِمْرًا».

فقال: «انصرف يا بُنَي، فداك أبوك، فوالله ما لي من كنز، ولكني أردت أن أَبْلُوَ رأيك في إخوتك وبني أبيك».

فانطلق عمرو، وخرج إخوتُه من المخدع، فاعتذروا إلى أبيهم، وأعطوه مَوْثِقَهُم على اتباع مشورته). انتهى

وقد اعتمدت في توثيق هذه الوصية على كتاب أنباء نجباء الأبناء للإمام الحافظ محمد بن أبي محمد بن ظفر المكي الصقلي (ت: ٥٦٥ هـ) صـ١٠٠، ١٠١، تحقيق/ لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى ١٤٠٠ ه، ١٩٨٠م.

كما وثقتها أيضًا من كتاب جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة لأحمد زكي صفوت، ٢/ ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، المكتبة العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.

المطلب الأول
بلاغة أسلوب الحوار في وصية سعيد لأبنائه بطاعة أخيهم عمرو

أنشأ سعيد بن العاص وصيته متخذًا من أسلوب الحوار طريقًا للتعبير عنها، وإيصال المغزى المراد منها، ولا شك في أن أسلوب الحوار ـ بما له من خصائص ـ من أفضل الطرق لإقناع المخاطب، ومن أقواها دلالة على احترام الرأي الآخر، وفتح مجال المحاورة والأخذ والرد بين الأطراف المتحاورة، ومحاولة كل طرف إبداء وجهة نظره، وإقامة الحجة والبرهان عليها، والوصول إلى فكرة مشتركة تتوقف على مهارة وقدرة أحد الأطراف على إقناع الآخر، شريطة أن يكون لدى الأطراف المتحاورة الرغبة في الوصول إلى الحق، والبعد عن التعصب والخصومة.

وقد اختار سعيد بن العاص الوقت المناسب لتوجيه وصيته لأبنائه، فقد رأى نجابة ابنه عمرو، مما دعاه إلى محاولة جمع أبنائه تحت إمرته؛ لتتحد كلمتهم، ويشتد ساعدهم، وتقوى شوكتهم، وقد عرض هذه الوصية في أسلوب حواري جذاب؛ إذ قدَّم بين يدي وصيته أسباب هذه الوصية ودواعيها، وعلّة الأمر بها وبرهانه؛ ليكون الأبناء على أرض راسخة عند قبول الوصية، وهذا مدعاة لاستجابتهم لنصح أبيهم، وإقبالهم على تنفيذ وصيته عن رضا وقناعة.

وقد تميز الحوار في الوصية بخصائص متنوعة، وسمات متعددة، اتَّخَذَت منها الوصية أسلوبًا فريدًا، وبلاغة رائعة، سلكت سبيلها إلى القلوب قبل العقول، فأسرت الأفئدة، وأخضعت الأبناء فاقتنعوا في نهاية المطاف بوصية أبيهم، وبادروا إلى تنفيذها، وهذا ما سيتضح من خلال دراسة الوصية إن شاء الله تعالى.

وقد اندرج تحت هذا المطلب من فقرات الوصية قول سعيد بن العاص ـ بعد أن ترعرع ابنه عمرو، وتفرَّس فيه النجابة، فجمع أبناءه، وكانوا يومئذ أكثر من خمسة عشر رجلا، إلا أنه لم يَدْعُ عَمْرا معهم ـ مخاطبًا أبناءه بقوله:

«يا بَنِيَّ، قد عَرَفتم خبرةَ الوالد بولده، وإن أخاكم عمرًا لذو هِمَّة واعدة، يسمو جَدُّه، ويَبْعُد صِيته، وتشتد شكيمَتُه، وإني آمركم إن نزل بي من الموت ما لا محَيص عنه، أن تُظَاهِروه وتُؤازِروه وتُعَزِّروه؛ فإنكم إن فعلتم ذلك يتألفْ بكم الكرامَ، ويخسأ عنكم اللئامَ، ويلبسكم عِزًّا لا تُنْهِجُه الأيام».

فقالوا جميعا: «إنك تُؤْثِره علينا، وتحابيه دوننا».

فقال: «سأوريكم ما سَترَه البغيُ عنكم"[1].

وبالتأمل في هذه الفقرة من الوصية يُلحظ أن سعيد بن العاص بدأ وصيته بأسلوب النداء في قوله:(**يا بَنِيَّ**)، وهو أسلوب يستدعي إصغاء المنادَى، ويستجلب مودته، ويستميله بلطف ورفق؛ حتى يُقبِل على المخاطب بقلبه قبل عقله، ومشاعره قبل جوارحه، فيُقبِل بفؤاد أحاطه الحنان، وغمرته المحبة والاطمئنان، ولسان حاله قبل مقاله: أنا مُصْغٍ لك في كل وقت وآن.

ثم أتبع النداء بلفظ (بَنِيَّ) التي تشعر بشدة الحرص والمحبة، ومزيد من الشفقة والمودة؛ لما يقتضيه لفظ البنوة من العناية، والرعاية، والتحنن، والتودد، ومداومة الصحبة؛ ولهذا يقال: ابن الفلاة لمن يداوم سلوكها، ويقال لطالبي العلم: أبناء العلم، فأصل الابن: التأليف والاتصال[2]، ثم أتبع النداء جملة فعلية ماضوية مسبوقة بـ(قد) في قوله: (**قد عرفتم**) ليفيد تحقق المعرفة، وثبوتها، ووقوعها على وجه المعاينة واليقين، وآثر(المعرفة) دون (العلم)؛ لأن المعرفة أخص من العلم؛ لأنها علم بالشيء مفصلًا

(١) أنباء نجباء الأبناء للإمام الحافظ محمد بن أبي محمد بن ظفر المكي الصقلي (ت: ٥٦٥هـ) ص١٠٠، تحقيق/ لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ ه، ١٩٨٠م. وجمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة لأحمد زكي صفوت، ٢/ ٢٢٥، المكتبة العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.

(٢) ينظر الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ص٢٨٢، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، مصر.

عما سواه، أما العلم فإنه يكون مفصلًا ومجملًا[1]، وهذا يدل على بلوغ أبنائه من العمر مبلغًا يُستطاع معه معرفة طباعهم، واكتمال خبرته بخصالهم وصفاتهم، فقد صارحهم بما يرونه ويشعرون به تجاه أبنائهم من خلال قوله: (قد عرفتم خبرة الوالد بولده)؛ وذلك لأن المعاني الحقيقية والمشاعر الصادقة تجاه الأبناء لا يشعر بها إلا من جَرَّب مشاعر الأبوة.

وأراد سعيد بن العاص بهذا التمهيد الذي خرج مخرج العلة والبرهان لما يأتي بعده من فقرات الوصية أن يرسخ في قلوب بنيه لتلك العلاقة الوطيدة بين الأب وأبنائه؛ فإن الوالد هو أقرب الأشخاص إلى أبنائه؛ حتى إذا ألقى عليهم النصيحة، وأعطاهم خلاصة تجاربه في حياته، وبذل لهم وسعه في التوجيه والإرشاد، كانت عقولهم على أتم استعداد لتقبل نصائحه، وقلوبهم متشوقة متلهفة لإرشاداته، حتى وإن كانت هذه النصائح مخالفة لرغباتهم، فإنه دخل عليهم بطريق الإقناع، وبذل لهم في التوجيه غاية ما استطاع.

ويؤيد هذا أنه استعان على توثيق عرى الترابط بين الوالد وولده بباء الإلصاق[2] في قوله: (قد عرفتم خبرة الوالد بولده)؛ فإنه لشدة لصوق الوالد بولده، ومخالطته إياه، وعدم مفارقته، أصبح أكثر الناس خبرة بطباعه، وأعرفهم بخصائصه وجميع شؤونه.

ولا يزال سعيد بن العاص يسعى بين يدي نصيحته لبنيه إلى التمهيد والتوطئة للغرض الذي أنشأ لأجله الوصية، فبعد أن رسَّخ حرصه الشديد على بنيه، وأكَّد لهم ـ بما لا يدع مجالًا للشك ـ شدة رغبته في الخير لهم، ومحبته إياهم، وحرصه عليهم، بدا له أن يؤكد على معنى آخر، وهو توطيد عرى الأخوة، وترسيخ دواعيها، وتوثيق روابط الدم بينهم، فقال: (**وإن أخاكم عمرًا**)، فلم يقتصر على لفظ الأخوة فقط، أو اسم

(١) ينظر المرجع نفسه ص٨٠.

(٢) الإلصاق هو أصل معاني الباء. ينظر الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، ص٣٦، تحقيق: د/ فخر الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢ م.

(عمرو) فقط، بل جمع بينهما في قوله: (وإن أخاكم عمرًا)؛ ليكون ذلك مدعاة إلى إحياء نوازع المحبة، وبعث روح الوحدة والتآلف بين الإخوة، وتقوية الروابط والأواصر بينهم؛ استعدادًا لما سيُلقى عليهم من نصائح وتوجيهات، يغلب على ظن أبيهم أنها قد تسمح للشيطان أن ينزغ بين الإخوة، أو يحاول التفرقة بينهم.

ومن بلاغة حوار سعيد مع أبنائه في وصيته أنه استعان بالأسلوب الخبري المؤكد بأكثر من أداة للتوكيد في قوله: (**وإن أخاكم عمرًا لذو هِمَّة واعدة**[1])، فجاء بـ(إنَّ) واسمية الجملة، واللام المزحلقة؛ لإنكار أبنائه الحكم الذي تضمنه الخبر؛ لما سبق من علم أبيهم بمشاعرهم تجاه أخيهم عمرو؛ بدليل التمهيد الذي مَهَّد به بين يدي وصيته، فهو يعلم نجابة ولده عمرو، ويعلم ما يشعر به إخوته من مشاعر الغَيْرَة تجاه أخيهم، خاصة وهم يعتقدون تفضيل أبيهم إياه عليهم، وتقديمه في عظائم الأمور، فلاءم التوكيد بأكثر من أداة حال المخاطبين، وأبدع الوالد في حواره مع أبنائه؛ حين حاول قتل مشاعر الحقد والبغض لدى بنيه تجاه أخيهم، ووأد كل محاولة للشيطان في النزغ بينهم، فذكَّرهم بروابط الأخوة والدم أولًا، ثم أخذ يُعَدد صفات أخيهم التي من أجلها سيوصيهم بما يفعلونه معه.

ومن خصائص بناء الحوار الوصل بين الجملتين: (قد عَرَفتم خبرةَ الوالد بولده) (وإن أخاكم عمرًا لذو هِمَّة واعدة)؛ للتوسط بين الكمالين، فقد اتفقت الجملتان في الخبرية لفظًا ومعنى، وكأن الوصل بينهما ينادي بشدة اقتناع الموصِي بمضمون كلامه؛ لأن الأسلوب الخبري أقدر الأساليب على تصوير الواقع، وإظهاره في صورة واضحة، فهو حكاية للواقع وتجسيد له كما هو، أو كما ينبغي أن تكون عليه صورته، أو كما يشعر به قائله، ويرتسم في مخيلته؛ لاشتماله على النسبتين: الكلامية والواقعية، بالإضافة إلى أن الأسلوب الخبري ينبئ عن قناعة المتكلم الشديدة بمضمون خبره، ويعكس ثقته

(١) همة واعدة: أي تسمو بصاحبها إلى المعالي، يقال: نبت واعد أي يرجى خيره، وأرض واعدة أي يُرجى نباتها. ينظر لسان العرب ٤/ ٥٥٢.

المطلقة بصدق كلامه، فلا يخشى تجاهه ردًا أو مخالفة[١].

وقد عمد سعيد بن العاص في حواره إلى المجاز العقلي لترسيخ المعنى وتقوية مضمونه، والتأكيد على الغرض المسوق له الكلام، وذلك في قوله: (هِمَّة واعدة)، والنعت (واعدة): اسم فاعل من (وعد) وأريد به المفعول؛ لأن الهِمَّة لا تكون واعدة، وإنما تكون موعودًا بها، فهو مجاز عقلي علاقته المفعولية، والمراد بالهِمَّة الواعدة: التي يُرجى الارتقاء بصاحبها، والوصول به إلى معالي الأمور وعظائمها، والبعد عن سفاسف الأمور وحقيرها، وكأنها وعدت أن تسمو بصاحبها إلى القمة.

وكذلك جاء قوله: (يسمو جَدُّه[٢])، من قبيل المجاز العقلي، وعلاقته المصدرية؛ لأن المراد صاحب الجد، والغرض منه: المبالغة في وصف ارتقاء منزلته وعلو شأنه ومكانته بين الناس.

وكذا خرج قوله: (ويَبْعُد صِيْتُهُ[٣]) مخرج المجاز العقلي، وعلاقته المصدرية، وسر التعبير به: المبالغة في ذيوع صيته، واشتهار أمره بين الناس؛ بحسن سيرته، وأثره الطيب بين كل من عرفه ومن لم يعرفه؛ لما يوحي به المجاز من المبالغة والتأكيد، فالمجاز العقلي إثبات بالدليل؛ لأنه إذا صح أن يكون الفعل من الفرع ـ الفاعل المجازي ـ فإن حدوثه من الأصل ـ الفاعل الحقيقي ـ آكد[٤]، وهذا مما يساعد في تصوير شدة قناعة

(١) ينظر خصائص بناء الجملة التعليلية أ. د/ السيد أحمد موسى، ص١٧٢٩، بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، العدد الأربعون، ٢٠٢١م.

(٢) الجَدّ: الحظ والرزق والمكانة والمنزلة، ومنه الدعاء: لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجَد: أي لا ينفع ذا الغنى عندك غناه وإنما ينفعه العمل بطاعتك. ينظر لسام العرب، مادة جدد، ٣/ ١٠٧.

(٣) (الصِّيت) بالكسر: الذكر الجميل الذي ينتشر في الناس دون القبيح. مختار الصحاح للرازي، (ص و ت)، ١/ ١٨٠.

(٤) ينظر خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني أ/ د. محمد محمد أبو موسى، ص١٤٨، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة.

الموصِي بمضمون كلامه، ورسوخ معتقده حتى صار كالحقائق التي لا يشك فيها أحد، ولا تقبل جدالًا أو نقاشًا.

كما اتخذ الحوار من أسلوب الكناية سبيلًا إلى إثبات المعنى وتقويته في قوله: (وتشتد شكيمته[1]) فهو كناية عن الحزم، والشدة، والأنفة، والقدرة على اتخاذ القرار، وعدم الانقياد لأحد؛ لأنه لما كان المراد بالشكيمة: قوة القلب، وهي تستلزم الحزم والشدة كانت برهانًا ودليلًا يُقوي من أزر الكلام، ويشد معاقده بالحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، ولا شك في أن الأسلوب الكنائي أقوى وآكد في الإثبات؛ لأنك " أوجَبْتَه إيجابًا هو أَشدُّ، وادَّعيْتَه دَعْوى أنتَ بها أَنْطَقُ، وبِصِحَّتها أَوْثَق"[2].

وقد جاء العطف بالواو بين الجمل السابقة؛ للإيذان باستقلالية كل واحدة منها بالفضل عن الأخرى، وكمال أهليته فيها، فكان التوسط بين الكمالين أبلغ طريق للعطف بين هذه الجمل، فقد اتفقت في الخبرية لفظًا ومعنى وكان بينها جامع.

ومن خصائص بناء الحوار ما اتسمت الجمل المستأنفة: (يسمو جَدُّه، ويَبْعُد صِيته، وتشتد شكيمَتُه) من كون المسند فيها فعلًا مضارعًا، يفيد ارتقاء عمرو في أوصاف الكمال المذكورة وزيادتها فيه، كما يحضرها شاخصة جلية أمام العيان، وهذا مما يعين على تقوية المعنى المراد، وتثبيته وترسيخه في نفوس المخاطبين، وإخراج هذه الجمل مخرج الخبر؛ لتقرير مضمونها، حتى كأنه صار حقيقة وواقعًا يخبر بحصوله، كما ارتدت هذه الجمل لباس الإيجاز، فقد تضمنت المعاني الكثيرة في عبارات قصيرة، استطاع من خلالها أن يوضح لأبنائه منزلة أخيهم، وما يراه من نجابته، ورجاحة عقله، وتوقد قريحته، وما يترتب على ذلك من رؤية مستقبله المشرق الواعد، ومكانته الرفيعة.

---

(١) الشكيمة في الأصل: الحديدة المعترضة في فم الفرس، والشكيمة: قوة القلب، ويقال: فلان شديد الشكيمة: إذا كان شديد النفس أنِفًا أبيًا لا ينقاد لأحد. ينظر مختار الصحاح، (ش ك م)، ١/ ١٦٨.

(٢) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني. ص٧١، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

وهكذا استطاع سعيد بن العاص أن يُحْسِن ابتداء وصيته، وأن يَبْرَع في جذب أسماع بنيه إليه، ويُبدع في الأخذ بعقولهم؛ كي تصغي إليه، وأسر قلوبهم بأول كلام يطرق آذانهم؛ لأنه إذا "كان الابتداء لائقا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استماعه"(١)؛ لأنه مهَّد لهذه الوصية، ووثقها بالدليل الساطع والبرهان القوي على صحتها؛ فعمرو نابه، وذو صيت ذائع، وهو شديد الشكيمة.

ثم شرع سعيد بن العاص في لب وصيته في قوله: (**وإني آمركم إن نزل بي من الموت ما لا محَيص عنه، أن تُظَاهِروه وتُؤازِروه وتُعَزِّروه؛ فإنكم إن فعلتم ذلك يتألفْ بكم الكرامَ، ويخسأ عنكم اللئامَ، ويلبسكم عِزًّا لا تُنْهِجُه الأيام**).

وإيثار التعبير بـ(إنْ) الشرطية في قوله: (إن نزل بي من الموت ما لا محيص عنه)، وهي للشرط غير المقطوع به؛ رغبة منه في الحياة، فالمخاطب قال هذه الوصية وهو ينعم بصحة وعافية، ولم يقلها عند احتضار أو مرض، فهو يؤمّل لنفسه البقاء في الدنيا؛ بقرينة ما جاء في الوصية بعد ذلك (ثم أمهلهم، حتى ظن أن قد ذهلوا عما كان، وراهق عمرو البلوغ)، وهذه طبيعة النفس البشرية، تتمسك بالحياة وتحرص عليها، وتحاول الهروب من تذكّر الموت(٢)، وقد يكون التعبير بـ(إنْ) الشرطية لبعث الطمأنينة في نفوس أبنائه؛ حتى لا يخيفهم عليه.

ومن جهة أخرى فإن التعبير بـ(إنْ) الشرطية هو الذي يتلاءم مع حال المخاطبين ـ وهم الأبناء ـ؛ فقد يخطر ببال أحدهم أن يفعل ما بدا له، أو يُقلِع عن تنفيذ وصية أبيه بعد

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير، ٣/ ٩٨، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة.

٢() بدليل حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ» فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ: "لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ". صحيح مسلم، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ٤/ ٢٠٦٥.

موته، وهذا أيضا مما جُبلت عليه النفس من محبة اتباع الهوى، وعدم التقيد بالأوامر والنواهي، ومحاولة الخروج على كل ما من شأنه أن يحد من حركتها أو يقيد انطلاقها، ولسان حال أبيهم أنه يجب عليكم طاعتي، وتنفيذ وصيتي بعد موتي.

ويؤيد هذا المعنى أنه حذف جواب الشرط؛ لدلالة الكلام السابق عليه، والتقدير: (إن نزل بي من الموت ما لا محيص عنه فإني آمركم...)، وهذا الحذف يلفت الانتباه إلى المحذوف، وهو ما يتلاءم ـ من جانب آخر ـ مع الأسلوب الخبري (قد عرفتم... وإن أخاكم عمرًا لذو همة... وإني آمركم...)؛ إذ كان التوسط بين الكمالين سبيلًا للوصل بين الجمل.

وإيثار التعبير بالمصدر المؤول في قوله: **(أن تُظَاهِروه وتُؤازِروه وتُعَزِّروه)** يؤكد شدة رغبة سعيد بن العاص في بعث روح التعاون بين أبنائه، وإحياء نوازع الأنفة والدفاع والمَنَعَة والمؤازرة بين الإخوة، وحرصه على استمرار روابط التواصل والتآلف والمحبة والتوقير فيما بينهم؛ لأن رغبته في مظاهرتهم لأخيهم ومؤازرتهم له ثابتة باعتبار الاسمية المستفادة من تأويل المصدر، ومستمرة باعتبار المضارع الذي دخلت عليه (أن).

ثم يتخذ سعيد بن العاص من الجملة التعليلية في حواره طريقًا لتقرير وصيته لأبنائه بمؤازرة أخيهم وتأكيدها في قوله: **(فإنكم إن فعلتم ذلك يتألفْ بكم الكرامَ، ويخسأ[1] عنكم اللئامَ، ويلبسكم عِزًّا لا تُنْهِجُه[2] الأيام)**؛ لأنه لما كان المأمور به مما يشق على الأبناء تنفيذه؛ لصغر سِن أخيهم، وتقدمهم عليه في العمر، توقع الأب عدم الاستجابة لنصحه، ومقابلة أمره بالرفض والاعتراض، فكان التعليل لأمره هو السبيل الأمثل الذي

(١) يخسأ: من خَسَأ بمعنى: طرد وأبعد، يقال: خسأت الكلب إذا طردته وزجرته. ينظر مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر الرازي، (خ س أ) ص٩٠، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، وينظر أيضا لسان العرب، مادة خسأ ١/ ٦٥.

(٢) تنهجه: أي تبليه، من أنهج الثوب أي أخلقه وأبلاه. لسان العرب، مادة نهج، ٢/ ٣٨٣

يقطع به ما يدور بخاطرهم من أسئلة، ويصل من خلاله إلى إقناعهم؛ ليكون عونًا لهم على البر به، وتنفيذ وصيته.

ولأجل هذا تصدرت الفاء الجملة التعليلية في قوله: (فإنكم إن فعلتم ذلك...)؛ لما تفيده الفاء من معنى السببية[1]، وكان التعليل بالفاء خاصة لإبراز شدة حرص الموصِي على تنفيذ وصيته، وقوة رغبته في امتثال أمره؛ لما تدل عليه الفاء من معنى السرعة المستفاد من دلالتها على التعقيب والترتيب بلا تراخ أو مهلة[2]، فالوالد يوصي أبناءه ويريد المسارعة في أخذ الوعد والميثاق منهم على تنفيذ وصيته، فيعقب الأمر ببيان سببه، ويرتب العلة على الأمر المُعَلِّ؛ ليكون أدعى لاستجابة نصحه، وأبلغ في إقناعهم.

كما كان للأسلوب الخبري دوره في توكيد مضمون الكلام، حين أكد الكلام بـ(إنَّ) واسمية الجملة بعد فاء السببية؛ ليكون هذا أبعث على إقناع الأبناء بصدق كلامه، وتوكيد وتقرير مضمون الخبر، وإبراز شدة رغبة الوالد في امتثال بنيه لنصحه، واستجابتهم لإرشاده، حتى كأنهم امتثلوا بالفعل.

ولما كان معتقد الأب في استجابة أبنائه لنصيحته أمرًا مشكوكًا فيه، ناسب ذلك أن يؤثر أداة الشرط (إنْ) في تنفيذهم ما أمرهم به في قوله: (فإنكم إن فعلتم ذلك)؛ لِسَابِق عِلْم أبيهم بالغيرة الكامنة في صدورهم تجاه أخيهم عمرو، وما تضمره نفوسهم من حقد عليه؛ لما يرونه من محبة أبيهم الزائدة له، وتقديمه إياه عليهم؛ لذا قيد الفعل بالاسم الموصول (ذلك) تفخيمًا لشأن المأمور به، وإبرازًا لشدة مشقته على أنفسهم.

وقد أثارت جملة الشرط في نفوس المخاطبين تشويقًا للجواب؛ لتذهب نفوسهم في توقع ما يمكن حدوثه إن استجابوا لنصح أبيهم، فجاءت جملة الجواب معطوفًا عليها

(١) لأن الفاء إن عطفت جملة، أو صفة، دلت على السببية غالبًا، ينظر الجنى الداني في حروف المعاني صـ٦٤، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب. لابن هشام ١/ ٢١٣، تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م.

(٢) ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ١/ ٢١٣، ٢١٤.

عدة جمل أخرى في قوله: (فإنكم إن فعلتم ذلك يتألفْ بكم الكرامَ، ويخسأ عنكم اللئامَ، ويلبسكم عِزًّا لا تُنْهِجُه الأيام) بصيغة المضارع في (يتألف، ويخسأ، ويلبسكم)؛ إبرازًا لهذه الأفعال في صورة متجددة مستمرة؛ للدلالة على أهمية المأمور به في الوصية، وشدة وقعه عليهم إن قاموا بتنفيذه، ومدى أثره على مكانتهم ومنزلتهم بين الناس.

وإيثاره لأفعال المضارعة: (يتألف، ويخسأ، ويلبسكم) أمر مقصود إليه، ولم يأت به جزافًا، وإنما لكل فعل منها دوره في الكلام، وتأثيره على الأذهان، فالأول: (يتألف) يستطيع المرء من خلاله أن يملك زمام القلوب، ويوحد بين الصفوف، ويجمع الجموع على كلمة واحدة؛ لذا عدى هذا الفعل بالباء (بكم)؛ لإبراز مكانتهم وشدة تأثيرهم في تأليف القلوب؛ بدليل تقديم الجار والمجرور على المفعول (الكرام)، وهذا التأليف بين القلوب هو الذي حكاه القرآن الكريم: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

والفعل الثاني: (يخسأ) يراد به ابتعاد أهل الشر عنهم، وانصرافهم عن الإيقاع بينهم؛ لأنهم لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا؛ ولذا عدي الفعل بـ (عن) وقدم الجار والمجرور (عنكم) على المفعول (اللئام)؛ ليزيد من شدة بُعد هؤلاء اللئام عنهم، وتصويرهم في صورة ذليلة مهانة، بعد أن باءت محاولاتهم بالفشل.

والفعل الثالث: (ويلبسكم عِزًّا لا تُنْهِجُه الأيام) جاء في صورة استعارية رائعة، استطاعت أن تأخذ بالألباب، وتسلك بالحوار منحى الصورة التي تبحث عنها النفس البشرية، وتضحي لأجلها الإنسانية، وتُبذل في سبيلها الغوالي، هذه الصورة هي المكانة الرفيعة بين الناس، والسؤدد الذي لا تؤثِّر فيه الليالي والأيام، فقد استعار العِزَّ والمنزلة للثوب الذي يرتديه الإنسان، بجامع الإحاطة والشمول في كل، فتكون الاستعارة تصريحية أصلية، ويمكن أن تكون الاستعارة مكنية عند تشبيه العِزّ بالثوب، وحذف المشبه به والدلالة عليه بشيء من لوازمه، ثم نعت هذا الثوب بالقوة والمتانة والجمال الذي لا يمكن للأيام أن تُبليه، أو تخلقه، وهذه صورة مجازية أخرى؛ حيث أسند الفعل

(تنهج) إلى الأيام، فهو مجاز عقلي بعلاقة الزمانية؛ مبالغة في عدم استطاعة الأيام أن تؤثر في هذا السؤدد والعز، وعجزها عن إِخْلَاقِه.

ولا غرو أن تصنع هذه الأفعال كل ذلك الأثر البالغ في النفوس، فبينها انسجام وتناسق، وفي اجتماعها تآلف وتوافق، على غاية هي ما يبحث عنه الإنسان؛ أن يحيا عزيزًا كريمًا رفيع الشان، وهذا ما ترتب على مراعاة النظير بينها.

وجاء السجع المتوازي[1] في وصية سعيد لبنيه في قوله: (فإنكم إن فعلتم ذلك يتألفْ بكم الكرامَ، ويخسأ عنكم اللئامَ، ويلبسكم عِزًّا لا تُنْهِجُه الأيام)؛ حيث اتفقت الكلمات (الكرام، اللئام، الأيام) في الوزن والقافية، مع لزوم حرف الألف قبل الروي[2]، فكان لهذا دوره في جذب أسماع الأبناء، وإثارة نفوسهم؛ مما يساعد على غرس معانيها في نفوسهم، وترسيخها في أذهانهم؛ لكونهم إلى ألفاظها أحفظ، ولسماعها أنشط، وإلى تذكرها واستدعائها أيسر، وذلك لأن السجع " يؤثر في النفوس تأثير السحر، ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم، لما يحدثه من النغمة المؤثرة والموسيقى القوية التي تطرب لهـا الأذن، وتهش لها النفس، فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل أو يخالطها فتور، فيتمكن المعنى في الأذهان، ويقر في الأفكار، ويعز لدى العقول "[3]، وهذا أدعى إلى استجابتهم، وتنفيذ وصية أبيهم.

وبعد أن بالغ سعيد بن العاص في نصح أبنائه، وحاول في حواره البليغ أن يسلك مختلف الطرق لإقناعهم برأيه، وشتى السبل التي من شأنها أن تجعلهم مقبلين على تنفيذ وصيته بصدور رحبة، وقلوب طائعة، ونفوس راضية، ما كان من الأبناء إلا أن قالوا

(١) ينظر بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، تحقيق/ عبد المتعال الصعيدي، ٤/ ٦٥٤، مكتبة الآداب، الطبعة السابعة عشر، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

(٢) المرجع نفسه ٤/ ٦٦٣.

(٣) الصبغ البديعي في اللغة العربية. تأليف / د. أحمد إبراهيم موسى، ص٤٩٧، دار الكتاب العربي – ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م.

جميعًا في كلمة واحدة: (**إنك تُؤْثِره علينا، وتحابيه دوننا**) مؤثرين في حوارهم مع أبيهم الأسلوب الخبري المؤكد بـ (إنَّ) واسمية الجملة؛ تصويرًا لحالهم، ومدى انفعالهم تجاه كلام أبيهم، وحرصهم على نقل مشاعرهم وأحاسيسهم أمام صنيع والدهم معهم، وما يريده منهم، ويؤيد هذا دلالة الإيثار والمحاباة على التفضيل والتحيز والميل الخاص في قولهم: (تؤثره، وتحابيه) ومجيئهما بصيغة المضارع؛ تصويرًا لحال أبيهم؛ إذ أسبغ على أخيهم عمرو من صفات الثناء الحسن ومكارم الأخلاق ما أثار نفوسهم منه، وأبرز نوازع الغيرة فيهم، كما دل المضارع على استمرار هذا الإيثار وتجدد تلك المحاباة، فكان حالهم ناطقًا بما تُكِنُّ صدورهم، وما تنطوي عليه نفوسهم من غيرة من أخيهم، حين ظنوا أنَّ جَعْل الكلمة والمشورة لأخيهم ليس لأجل ما ذكر أبوهم من صفات ومكارم طيبة، وإنما لأجل حبه له، وإيثاره عليهم، وأيد هذا تقييد الإيثار بالجار والمجرور (علينا) الذي يشعر باستعلاء أخيهم عليهم، وتقييد المحاباة بالظرف (دوننا) الذي يفيد انحياز أبيهم وميله تجاه أخيهم عمرو.

ولم يجد سعيد بن العاص بُدًا من استعمال الحيلة مع بنيه، وإيقاف الحوار عند هذا الحد ـ على الأقل في هذا الحين ـ فقد وجد منهم رفضًا مؤكدًا لوصيته، وعدم استجابة ـ بطريقة غير مباشرة ـ لنصيحته؛ بذكرهم أن سبب هذه الوصية هو محبته لأخيهم عمرو، وتفضيله وإيثاره عليهم، فكان لا بد من ذكاء وحيلة، حتى يقنعهم بصحة وجهة نظره، وأنه إذا كان منه تفضيل لأخيهم فإنه بسبب ما يراه فيه من مؤهلات السيادة والقيادة، وبوادر النجابة والفراسة، فقال لهم: (**سأوريكم**[1] **ما سَتَرَه البغيُ عنكم**)، وهذه الجملة على قِصَر ألفاظها، إلا أنها تضمنت المعاني الكثيرة، وحوت إيحاءات عديدة؛ فقد أراد أن يخبرهم أن حكمهم على أبيهم جائر، وتفضيله لأخيهم عليهم له دواعيه وأسبابه التي دفعت إليه، وأنه سيُجَلِّي لهم صدق كلامه، وصحة معتقده، وأن غَيْرتهم منه وحنقهم عليه غطى أعينهم عن الحقائق، وصرفهم عن رؤية الأمور بصورة صائبة، وناسب ذلك

(١) المراد به: سأظهر لكم الحق، مأخوذ من وَرَّيْتُ النار تورية إذا استخرجتها، وورى الزند: خرجت ناره، ينظر لسان العرب، ورى، ١٥/ ٣٨٨.

تقييد الفعل (سأوريكم) بالموصول (ما) الذي أفاد التحقير والتهوين من وجهة نظرهم ورأيهم في أخيهم، وفي وصية أبيهم، وأوحى بمزيد من التعمية والإبهام والخفاء الذي وقع فيه الأبناء حين أخطأوا الرأي، وأصدروا أحكامًا مبنية على الهوى المجرد، عارية عن الأدلة والبراهين.

كما أيد هذا ما جاء به من الطباق الخفي بين الفعلين: (سأوريكم) و(ستره)؛ لأن الستر يستلزم الخفاء وهو ضد الظهور الذي هو مراد الفعل (سأوريكم) وقد ساعد الطباق هنا على إبراز الخطأ الذي وقع فيه الأبناء، والمعتقد الذي ترسخ في عقولهم، من كون السبب في تفضيل أخيهم هو الميل القلبي من أبيهم تجاهه، وليس لرؤية أبيهم نجابته ورجاحة عقله.

كما كان للصورة الاستعارية دور في إبراز خطأ معتقد الأبناء في قوله: (ستره البغي عنكم)؛ حيث شبه البغي الذي وقعوا فيه فأعمى عيونهم عن رؤية الحقيقة، وجعل على أبصارهم غشاوة ـ بالثوب الذي يُسدل على البدن فيغطيه ويستره، على سبيل الاستعارة المكنية، وأفاد شدة بعدهم عن الحق، ومجاوزتهم الحد في الظن إيثار حرف المجاوزة (عن).

وهكذا أنهى سعيد بن العاص حواره مع أبنائه نهاية شِبه مؤقته؛ فقد سيطر عليهم الهوى، وتملَّكتهم الغيرة، وصدهم الشيطان عن رؤية الأمور على حقيقتها، فأَنْهَى معهم الحوار، لكنه أعطاهم ما يشبه الوعد بأنه سيُظهِر لهم صحة رأيه، وصدق معتقده، وخطأ رأيهم، ثم انصرف الأبناء.

وطريقة سعيد بن العاص في إنهاء الحوار مع أبنائه من أبرز سمات الحوار؛ لأن مهارة المُحَاوِر المتميز تظهر في قدرته على إنهاء الحوار في الوقت الذي يرى فيه عدم رؤية الآخر للحق، وإصراره على معتقده، وسيطرة الباطل على عقله، وتغطية الغشاوة على بصره، ففي هذا الوقت لن يجدي الحوار ثمرته المرجوة؛ لأن الكلام سيذهب هباء، ومحاولات الإقناع ستبوء بالفشل؛ ولهذا فإنهاء الحوار والبحث عن وسيلة أخرى

لإقناعهم هو أفضل الحلول وأسلمها، وهنا تظهر براعة الشخص المحاوِر وقدرته على إيجاد طريقة للإقناع، تتوقف على مدى خبرته بالطرف الآخر، ومدى استجابته له، وهذا ما قام به سعيد بن العاص مع أبنائه مما سيتجلى في دراسة المطلب الثاني إن شاء الله تعالى.

المطلب الثاني

بلاغة أسلوب الحوار في بيان ذكاء سعيد وحيلته مع أبنائه

حين رأى سعيد بن العاص موقف أبنائه من أخيهم عمرو، وإصرارهم على أن السبب في تقديم أبيهم له عليهم هو تفضيله عليهم، وإيثاره إياه دونهم، أراد أن ينحو معهم منحى آخر في الحوار، يستطيع من خلاله أن يجعلهم مُقِرِّين بصواب رأيه، مُسَلِّمين بخطأ معتقدهم، فانتظر حتى انشغل الأبناء، ونسوا الحوار الذي كان مع أبيهم، ثم عاد إليهم في وقت آخر، بعد أن راهق عمرو البلوغ، وفي حوار آخر يقوم على الحيلة والدهاء؛ فقد أظهر سعيد بن العاص اقتناعه بوجهة نظر أبنائه في هذا النص من الحوار ـ على سبيل مجاراة الأبناء ـ بل وساق إليهم من الأدلة التي تبرهن على صحة رأيهم ـ على سبيل الفرض والاحتمال ـ ولعله أراد مجاراتهم في الحوار، وإظهار اقتناعه بوجهة نظرهم؛ حتى يأمنوا جانبه، ويُسَلِّموا له عقولهم؛ لأنه مهما حاول إقناعهم بالكلام فستظل قناعتهم بأفكارهم عالقة بأذهانهم، ولن يتزحزحوا عنها؛ لذا فقد عمد إلى إقناعهم بالدليل العملي، والبرهان الفعلي؛ ليكون ذلك أدعى إلى تصديقهم، وأجدى في إقناعهم، وهذا المطلب سيتناول بلاغة أسلوب الحوار في بيان ذكاء سعيد بن العاص وحيلته مع أبنائه بمشيئة الله تعالى.

فقد **صرف سعيد بن العاص بنيه، ثم أمهلهم حتى ظنَّ أنْ قد ذَهِلوا[1] عما كان، وراهق عمرو البلوغ، واستدعاهم دون عمرو. فلما حضروا قال: «يا بَنِيّ؛ ألم تروا إلى أخيكم عمرو؟ فإنه لا يزال يُلْحِفُ في مسألتي مالي، فَأَحُشُّ[2] عِيله[3] لِصِغَره، وَأُحَسِّبُه[4]**

(١) ذهلوا: أي انشغلوا عما كان ونسوه. ينظر لسان العرب، ذهل، ١١/ ٢٥٩.

(٢) أَحُشُّ: أي أقطع وأمحو، وحشَّ فلانًا: أصلح من حاله، من حش الحشيش إذا قطعه. ينظر لسان العرب، حشش، ٦/ ٢٨٣، وقيل:(فأحسن) بالنون أي اجعل فقره حسنًا، وأزيل قبحه بعطائي إياه. ينظر جمهرة خطب العرب ٢/ ٢٢٦.

(٣) العيلة: الفقر والفاقه، والعَيِّل: الفقير، ينظر لسان العرب، عول، ١١/ ٤٨٨.

(٤) أُحَسِّبُه: من الإحساب وهو الكفاية، أي أعطيه ما يكفيه ويرضيه، وفي التنزيل: (عَطَاءً حِسَابًا) أي:

بالشيء دون الشيء من مالي إلى أن اسْتَثْبَتُّ أن أمَّه باغيته[1] على ذلك، فزجرتها فلم تكفف، وهذا مَخْرَجُه الآن من عندي، جاء يسألني الصَّمْصَامة[2]، كأنْ لا ولد لي غيره، وقد عزمتُ على أن أُقَسِّم مالي فيكم دونه، لتعلم أمُّه من يكيد».

فقالوا كلهم: يا أبانا هذا عملُك بإيثارك له علينا، واختصاصك إياه دوننا، فقال: «يا بني، والله ما آثرته دونكم بشيء من مالي قطُّ، ولا كان ما قلتُه لكم إلا اختلافا تساهلتُ فيه؛ لما أمَّلته من صلاح أمركم"، ثم قال لهم: ادخلوا المِخْدَع)[3].

وبالتأمل في هذه الفقرة من الوصية يُلحَظ أن سعيد بن العاص بدأ الحوار بأسلوب النداء: (**يا بَنِيَّ**) ـ كما فعل في حواره في المطلب السابق ـ؛ لأنه لا يزال يستميلهم إليه،

كثيرًا كافيًا. ينظر لسان العرب، حسب، ١/ ٣١٣.

(١) باغيته: أي معينة له على طلبه وباعثة له، يقال: أبغاه الشيء: طلبه له وأعانه على طلبه، والباغي: الطالب. ينظر لسان العرب، بغى، ١٤/ ٧٦.

(٢) الصمصامة: الصمصامة: هو سيف عمرو بن معدي كرب الزبيدي، وقد صار إلى سعيد بن العاص، وذلك حين ارتد بنو زبيد غزاهم خالد بن الوليد، وكان خالد بن سعيد بن العاص ـ عم سعيد بن العاص المذكور ـ من جملة أمرائه، وقد أوقع بهم وهزمهم وأسر ريحانة أخت عمرو بن معد يكرب، ففداها خالد وأثابه عمرو الصمصامة، ولم يزل هذا السيف عند آل سعيد بن العاص حتى اشتراه منهم الخليفة المهدي العباسي بخمسين ألف درهم، ووهبه المهدي لابنه الهادي فدعا بالصمصامة بعد ما ولي الخلافة، فوضعه بين يديه، وأذن للشعراء أن يقولوا في السيف شعرًا، فَبَذَّهم ابن يامين البصري، فأعطاه الهادي السيف والجائزة، ففرقها على الشعراء، وقال: دخلتم معي، وحرمتم من أجلي، وفي السيف عوض، ثم بعث إليه الهادي، واشترى منه السيف بخمسين ألفا، ثم وصل إلى المتوكل، فأعطاه إلى غلامه باغزا التركي، فقتله به، ثم انقطع خبر هذا السيف عند باغزا. ينظر خبر الصمصامة في مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن على بن الحسين بن على المسعودي، ٣/ ٣٣٥، تحقيق: أسعد داغر، دار الهجرة، قم، ١٤٠٩هـ. وينظر أيضا الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، ١٥/ ٢٠٤، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، كما ينظر أنباء نجباء الأبناء ص١٠٣.

(٣) كتاب أنباء نجباء الأبناء ص١٠٠، ١٠١، وجهرة خطب العرب ٢/ ٢٢٦.

ويلفت انتباههم، ويجذب أسماعهم، ويرقق قلوبهم تجاهه، ويقرر لهم حقيقة ما كانت لتخفى عليهم، وهي أنهم أبناؤه، وأنه لا يريد لهم إلا الخير، وليس هناك على وجه البسيطة كلها من يحبهم، أو يخلص لهم النصيحة مثله.

ومن خصائص بناء الحوار إيثار طريق التشويق في جذب قلوب الأبناء حين أتبع النداء بأسلوب الاستفهام في قوله: (**ألم تروا إلى أخيكم عمرو؟ فإنه لا يزال يُلْحِفُ في مسألتي مالي، فَأَحُشُّ عِيله لصِغَرِه، وَأُحَسِّبُه بالشيء دون الشيء من مالي إلى أن اسْتَثْبَتُّ أن أُمَّه باغيته على ذلك**...) والاستفهام هنا قصد به التعجيب مما في حيزه، والتشويق إلى الاستماع إليه، والإشعار بأهميته، كما يتضمن معنى التقرير ـ أي: قد رأيتم، بالإضافة إلى ما فيه من جذب انتباههم بأسلوب رقيق، يأخذ بعقولهم إلى حيث الاقتناع.

كما سلك الحوار مسلك التشويق أيضا من خلال التفصيل بعد الإجمال في قوله: (فإنه لا يزال يلحف)؛ فقد فَصَّلت الفاء وما دخلت عليه ما أجمله الاستفهام؛ فإنه لما أجمل حال أخيهم عمرو بالاستفهام: (ألم تروا إلى أخيكم عمرو) جاء بتفصيل هذا الإجمال، وتوضيح الإبهام، وبناء الحوار على التفصيل بعد الإجمال يعطي للحوار أهمية عظمى، يسترعي بها انتباه أبنائه، ويشوقهم إلى الأحداث، ويثير دواعي التأثر والاستجابة، وإذا جاء الشيء بعد تطلع وتشوق إليه تمكن من النفس خير تمكن، ووقع فيها فضل وقوع؛ لأن الحاصل بعد الطلب أعزَّ من المنساق بلا تعب[1]، لا سيما وأن هذا الأمر متعلق بأخيهم عمرو، الذي عليه مدار الوصية.

وإيثار سعيد بن العاص الضمير العائد على (عمرو) في قوله: (فإنه لا يزال يُلْحِفُ) يعد ـ من جانب ـ إيجازًا واختصارًا؛ حيث تقدّم ذكره في الكلام، وتحاشيًا ـ من جانب آخر ـ من تكرار اسم (عمرو)؛ لما سيذكره سعيد بن العاص من بعض أفعاله التي تعد عيبًا في حقه، وإبرازًا ـ من جانب ثالث ـ لسخط سعيد على ابنه عمرو وغضبه بناء على زعمه؛ حيث استغل عمرو منزلته وصغر سِنِّه في الضغط على أبيه ليعطيه ما يريد ـ على

(١) شروح التلخيص، ٣/ ٢١٠، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

حد ما زعمه سعيد في الحوار.

وعبر بالمضارع (يلحف) للتأكيد على استمراره في الإلحاح، وسؤاله أن يعطيه من ماله، ويؤيده إيثار لفظ الإلحاف الدال على شدة الإلحاح في الطلب[1]،قال تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾[البقرة: ٢٧٣]، ثم تأتي الفاء مرة أخرى في حوار سعيد في قوله: (فَأَحُشُّ عِيله لِصِغَره)، ولكنها هنا للترتيب والتعقيب، كما يستفاد منها معنى السرعة، فالأب يحزنه أن يجد ابنه في فاقة ولا يسارع بتقديم العون له، وبخاصة إذا كان صغيرًا في السن، ولذا عطف عليه قوله: (وَأُحَسِّبُه بالشيء دون الشيء من مالي)، فكان يعطيه ما يكفيه ويرضيه، والحوار إلى هنا يؤيد وجهة نظر أبنائه ـ وهي تفضيل أخيهم عليهم، وإيثاره بالشيء القليل دونهم ـ ولكن سعيدًا لم يبين الدوافع والأسباب التي جعلت عمرًا يفعل هذا؛ لذا فقد أوضحها في قوله: (إلى أن اسْتَثْبَتُّ أن أمَّه باغيته على ذلك، فزجرتها فلم تكفف).

وإيثار عطف المسند (فزجرتها) بالفاء يوحي بسرعة زجره أم عمرو عما تفعله معه ـ من أزِّه على كثرة سؤال أبيه وطلب ما يزيد عن حاجته ـ فور علمه، وتثبته من كون أمه هي التي دفعته إلى هذا، ولكن لم يكن منها استجابة للزجر، بدليل العطف بالفاء في قوله: (فلم تكفف) الذي يشعر بأنها لم يكن لديها أدنى استعداد للاستجابة لأمر سعيد بن العاص، وأنها استمرت في دفع ابنها عمرو ومساندته، وتشجيعه على ما يقوم به، فعبر بالمضارع (تكفف) دلالة على عدم التفاتها لزجر سعيد وعدم اعتدادها به، واستمرار تشجيعها عمرًا، ولعل فك الإدغام في الفعل يوحي بإظهارها له، وعدم استتارها فيما تقوم به، بل تقوم به جهارًا دون استحياء أو خجل؛ فصاغ الفعل ملائمًا لسياق حالها، كما كان ملائمًا لسياق المقال[2]؛ فقد أراد سعيد بن العاص أن تقوم خدعته بأحكم سبك،

(١) ينظر لسان العرب، لحف، ٩/ ٣١٤.

(٢) ينظر تنوع الأفعال بين الفك والإدغام في الذكر الحكيم "دراسة بلاغية" أ. د/ إبراهيم صلاح الهدهد، ص٢٦، مكتبة الإيمان للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٥م.

وأقوى حجة فآثر فك الفعل (يكفف) مراعاة لغرضه؛ مبالغة في إبراز حرصها على ما تفعل، وإصرارها على ذلك، وعدم مبالاتها بزجر سعيد بن العاص لها، ونهيه عما تقوم به، ومحاولتها ـ مرة تلو الأخرى ـ بشتى الطرق تنفيذ غرضها الذي تصبو إليه، مهما كلفها ذلك، وأنه لن يثنيها عما تفعل أحد، ولن يستطيع أن يوقفها عن عزمها شيء.

هكذا سلك سعيد بن العاص في حواره مع أبنائه وسيلة أخرى من وسائل الإقناع، فلم يقف عند تأييد ادعاء إخوته بأنه يؤثره عليهم فحسب، بل أخبرهم بأنه تَثَبَّت وتأكد من الدوافع التي دفعت عمرًا كي يفعل هذا، وهي أن أمه هي التي عاونته على هذا، وشجعته على سؤال أبيه ماله، وأنه سرعان ما نهاها سعيد عن هذا الفعل، ولكنها أصرت، وعاندت، ولم تنتهِ.

ولا يزال سعيد في حواره مؤيدًا أبناءه في قناعتهم تجاه أخيهم عمرو ـ من باب مجاراتهم في ادعائهم ـ؛ ليصل في نهاية الحوار إلى غايته التي أنشأ الوصية لأجلها، فهو يحاول بكل ذكاء أن يسلك أدهى الحيل التي تقنعهم بأنه صار مؤيدًا لهم؛ ليسلم له سبك القصة، ويَصِل من خلالها إلى هدفه المنشود، فنراه يستأنف حواره مع أبنائه بقوله: **(وهذا مَخْرَجُه الآن من عندي، جاء يسألني الصَّمْصَامة، كأنْ لا ولد لي غيره، وقد عزمتُ على أن أُقَسِّم مالي فيكم دونه؛ لتعلم أمُّه من يكيد)**.

وجاء المسند إليه (هذا) اسم إشارة؛ لتمييز المسند إليه أكمل تمييز؛ ليُجَسِّد الدليل على صدق قوله، ويُشَخِّص الحجة التي تُفنِّد زعمهم، وكأنه يسوق بهذه الجملة مزيدًا من الأدلة والبراهين على ما ادعى، بالإضافة إلى ما يشعر به اسم الإشارة من الاستعظام لما فعل، وقد أثارت الجملة الاسمية تساؤلا عند المخاطبين، فحواه: ما سبب ذلك؟ فكانت الجملة بعدها جوابًا عن هذا السؤال: (جاء يسألني الصمصامة) فترك العطف بين الجملتين؛ لشبه كمال الاتصال، كما أثارت هذه الجملة: (جاء يسألني الصمصامة) في ذهن المخاطبين سؤالًا تقديره: (كيف يسألك الصمصامة؟ كيف يتجرأ على هذا الطلب؟) فكانت الجملة بعدها: (كأن لا ولد لي غيره) جوابًا عن السؤال المقدر أيضا.

واتخاذ سعيد بن العاص هذا المنحى في حواره؛ حيث جعل من شبه كمال الاتصال سبيلًا لتشويق الأبناء لحديثه، وجذب أسماعهم لحواره، ولفت أذهانهم لأهمية ما يسمعونه من أبيهم، كل هذا كان له دور في بعث الحياة في الحوار، وجعله حوارًا جذابًا يشد الأسماع، ويأخذ بالألباب والعقول، ثم هو يُشْعِل في الحوار أجواء الإثارة، والشد والجذب بين الأطراف، والأخذ والرد بين المتحاورين؛ ليخلُص في نهايته إلى بُغيته.

هكذا سَلَّط سعيد بن العاص الضوء في حواره على الجانب المعنوي النفسي لدى أبنائه؛ إذ جعل من ترك العطف لشبه كمال الاتصال مراعاة لهذا الجانب؛ رغبة في التعبير عما بداخلهم؛ إذ لم يلجئهم إلى السؤال الصريح، بل استنبط من الحوار سؤالًا صلح أن يكون الكلام بعده جوابًا عنه.

ولعل تخفيف نون (كأنْ) يوحي بمزيد من التعجيب المستفاد من المعنى المراد؛ إذ تَعَجَّبَ الأب، وأنكر ما رآه من جرأة عمرو على هذا الطلب ـ على حد زعمه ـ فكان تخفيف النون أكثر دلالة على الإنكار؛ بدليل دخولها على جملة القصر: (لا ولد لي غيره) التي خرجت مخرج النفي والاستثناء المستعمل في الأمر الذي ينكره المخاطب ويجحده، أو الأمر الذي ينزل هذه المنزلة[1]؛ فقد نُزِّل عمرو منزلة من ينكر أن لأبيه أولادًا غيره حين تجرأ على طلب الصمصامة من أبيه والقصر هنا أدعى إلى تمكين المعنى وتقريره في الذهن، والمبالغة في إنكار تخصيص سعيد لابنه عمرو بأخذ الصمصامة دون إخوته.

ولما كان تصرف عمرو بن سعيد مثيرًا لإنكار إخوته ـ فضلًا عن أبيه ـ كان لا بد من وجود رد فعل يكافئ ما فعل؛ لذا أخبر سعيد أبناءه قائلًا: (**وقد عزمت على أن أُقَسِّمَ مالي فيكم دونه؛ لتعلم أمه من يكيد**)، ودخول (قد) على الفعل الماضي أفاد التحقيق والتوكيد لمضمون الكلام، والرغبة في وقوعه على وجه اليقين، وهذا ينبئ بشدة استعظام سعيد لما قام به ابنه عمرو، والمبالغة في دهشته وتعجبه وإنكاره لدرجة جعلته يفكر في حرمانه

(١) ينظر دلائل الإعجاز ص٣٣٢.

من ماله؛ عقابًا له على ما بدر منه، وتأديبًا له على مسألته؛ لعل ذلك يشفي صدور إخوته، ويذهب بشيء مما بها من غيظ وحنق على أخيهم.

ويؤيد هذا تعدية الفعل (عَزَمْتُ) بـ(على) الذي يُشعِر بشدة إصرار سعيد على عزمه، وأنه لن يثنيه عن هذا العزم أحد، ولن يردَّه عما يريد شيء، ومجيء المصدر المؤول (أن أُقَسِّم) يؤكد شدة رغبة سعيد بن العاص في تنفيذ عزمه، وحرصه على استمرار هذا الأمر؛ ليشفي صدره، ويذهب غيظ إخوته.

كما يؤيد هذا أيضا مجيء التعليل باللام في قوله: (لتعلم أمه من يكيد) الذي يعكس شدة حرص سعيد على رد مكيدة الأم بمكيدة أقوى منها، ويصور غاية تحقيق العلم؛ لأنه مؤيد بالفعل، وغير مقتصر على مجرد التهديد فحسب؛ لدلالة المضارعة على استمرارية الفعل وتجدد حدوثه، كما يشعر الاسم الموصول (مَن) بتفخيم شأن هذه المكيدة وتعظيمها؛ لأنها مكيدة خارجة عن الحد والعرف؛ بدلالة جملة الصلة (من يكيد) التي تدل على شدة وقعها، وعظم أثرها.

وبعد أن ساق سعيد لأبنائه كل دليل وبرهان يؤيد معتقدهم بشأن أخيهم، وأعطاهم الفرصة التي يبحثون عنها؛ كي يثبتوا لأبيهم صحة هذا المعتقد، وأظهر لهم ـ على سبيل الخدعة والدهاء ـ أنه أصبح الآن في صَفِّهم، مقتنعًا بوجهة نظرهم، مؤيدًا لهم، وبعد كل هذا ترك لهم الحوار؛ كي يرى رأيهم، ورد فعلهم، وإن كان يعلم مسبقًا رأيهم، إلا إنه أراد أن يكشف لهم حقيقة أنفسهم، بأن يجعلهم ينطقون بما في قلوبهم، فإذا بهم جميعًا يقولون: (**يا أبانا هذا عملُك بإيثارك له علينا، واختصاصك إياه دوننا**).

ويلاحظ في حوار الأبناء مع أبيهم هذه المرة قولهم: (يا أبانا)، بخلاف حوارهم السابق معه في المطلب الأول؛ حيث لم يقولوا له: (يا أبانا) بل قالوا مباشرة: (إنك تؤثره علينا وتحابيه دوننا)؛ لأنهم في هذا النص من الحوار قد استشعروا أن أباهم مؤيد رأيهم، مقتنع بوجهة نظرهم، بل جاء بالأدلة والبراهين التي تجعلهم في قناعة تامة بمعتقدهم، وكأنهم أصبحوا الآن أبناءه حقًا، وهو أبوهم صدقًا، كيف لا؟ وقد أراد أن يُقَسِّم ماله

فيهم دون أخيهم، ويؤثرهم عليه بما لم يمنحه إياه؟ وكأن أسلوب النداء قد أشعر سعيدًا بأنه نجح في حواره مع أبنائه، وأنه وصل إلى الغاية التي يريدها، وهي إقناعهم بأنه أصبح مؤيدًا لهم في وجهة نظرهم، مقتنعًا بحدسهم تجاه أخيهم عمرو، حين أراد أن يجعلهم تحت إمرته، وأخذهم مشورته.

ولذا لم يكن الأبناء بحاجة إلى أدوات توكيد في حوارهم؛ فقد وصلوا إلى غرضهم مع أبيهم، لكنهم حاولوا ـ من جانب آخر ـ تأنيب ضمير أبيهم، وإيقاع اللوم عليه من طرف خفي، وأنه هو السبب فيما فعل عمرو، فقالوا له بعد النداء: (هذا عملُك بإيثارك له علينا، واختصاصك إياه دوننا)، فآثروا اسم الإشارة في المسند إليه؛ لما يتسم به من شمول الدلالة، وتركيز للعبارة، وإيجاز للأحداث، وتفادٍ للتكرار الذي تترهل به الأساليب في وثوبها إلى القلوب[1]، فاختصروا به ما ذكره سعيد بن العاص مما حدث من أخيهم عمرو، كما جاء اسم الإشارة (هذا)؛ لتمييز المسند إليه أكمل تمييز، وإبرازه وتحديده فيقع الحكم عليه، ويثبت بأن العلة فيما حدث من عمرو إنما هي عمل أبيهم وفعله، فيكون أقوى في إيقاع اللوم عليه، ولا يخفى ما وراء الإشارة أيضا من تهوين وتحقير لشأن المشار إليه.

ثم إنهم أخرجوا كلامهم مخرج الأسلوب الخبري المُصَدَّر بالجملة الاسمية: (هذا عملك)؛ للدلالة على الدوام والثبوت، فالجملة الاسمية تحمل في طياتها تعليلًا لما حدث، وبيانًا للأسباب الدافعة لأخيهم في أفعاله؛ بدليل التقييد بالجار والمجرور (بإيثارك)؛ حيث جاءت باء السببية لتعلل ما حدث، وتبرز الأثر المترتب عليه، ودخولها على المصدر المجرد فيه إثبات للأحداث مجردة عن الزمان، وكأنهم أرادوا تسليط الضوء على أبيهم وما قام به مع أخيهم؛ زيادة في إيقاع اللوم عليه، ومبالغة في إثبات وجهة نظرهم وقناعتهم تجاهه، وبث مزيد من معاني الإصرار والرغبة فيما يريد أن يقوم به سعيد تجاهه من حرمانه من ماله، وتقسيمه على إخوته دونه.

(١) ينظر خصائص التراكيب. أ/ د. محمد محمد أبو موسى، ص٢ ـ ٨.

وإيثار اللام الجارة في جانب عمرو بينما آثروا الجر بـ (على) في جانبهم؛ لأنه أوقع في الدلالة على غرضهم، وإثبات جَور أبيهم حين فَضَّل أخاهم عليهم، وآثره دونهم، وهذا الذي أعطى أخاهم الثقة في تصرفاته وأفعاله مع أبيه.

ويستأنف سعيد بن العاص حواره مع أبنائه بقوله: «**يا بَنِيَّ، والله ما آثرته دونكم بشيء من مالي قطُّ، ولا كان ما قلتُه لكم إلا اختلافا تساهلتُ فيه؛ لما أَمَّلته من صلاح أمركم**"، **ثم قال لهم: ادخلوا المِخدع**[1]، **فدخلوا المخدع**"

فبدأ بتكرار أسلوب النداء: (يا بَنِيَّ) كما هو ديدنه في حواره معهم؛ تأكيدًا على صفة البنوة؛ لمزيد استمالتهم إليه، وكأنه يُذَكّرهم بين الفينة والأخرى بأنهم أبناؤه، وأن منزلة الأبناء لدى الآباء لا تتغير مهما حدث؛ لأنها فطرة الله التي فطر الناس عليها، وأنه إن حدث ميل قلبي تجاه أحد الأبناء دون الآخر فهذا لا يقدح منزلة الأبوة في شيء؛ لأن أمر القلوب بيد الله، فهو لا يزال يؤكد على ثبوت معنى البنوة، ويقرر صدقه في إخلاص النصح إليهم، وذلك بالتكرار للنداء، ولا يخفى ما للتكرار من دور بليغ في الحوار، وأثر فعال في التأثير على المخاطب؛ لأنه وسيلة إلى تثبيت المعنى في النفس، وترسيخه في العقل، «وكم من كلام هو عن التحقيق طريد، حتى يخالطه صفو التأكيد، فعند ذاك يصير قلادة في الجيد، وقاعدة التجويد»[2].

ويتبع النداء أسلوب القسم في قوله: (والله ما آثرته دونكم بشيء من مالي قط)؛ للتأكيد على مضمون الخبر، وهو نفي إيثاره عمرًا دون إخوته؛ فقد بلغ الشك في تفضيل سعيد لعمرو من إخوته مبلغ اليقين، خاصة بعد ما حكاه سعيد عن أخيهم، فنفدت كل الأعذار، ولم يجد سعيد بدًا من إماطة الشبهة عن نفسه، وإزالة اللثام عن حقيقة الأمر،

(١) المخدع: هو البيت الصغير الذي يكون داخل البيت الكبير، وتضم ميمه وتفتح، مأخوذ من الخدع: وهو إخفاء الشيء. ينظر لسان العرب، خدع، ٨/ ٦٥.

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة، الحسيني العلويّ (ت: ٧٤٥هـ) ٢/ ٩٤، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.

ومحو الشكوك التي تساور أبناءه تجاهه، فعمد إلى أسلوب القسم؛ لينفي عن نفسه التهمة، ويبرئ ساحته مما جزم به أبناؤه، أو أوهمهم هو إياه، ثم إنه في الطريق لإثبات هذا المعنى وتقريره وتوكيده يؤثر الظرف (قط)[1] الذي يؤكد أنه ما كان منه إيثار لأخيهم دونهم فيما يتعلق بالجانب المادي ـ ولو كان شيئًا قليلًا ـ؛ بدليل الجار والمجرور (بشيء) الذي يؤيد صدقه في القَسَم، مما لا يدع مجالًا للشك معه.

ثم علل لما قام به مع عمرو ـ من تساهل معه في إعطائه الشيء القليل ـ حين قال: **(ولا كان ما قلتُه لكم إلا اختلافا تساهلتُ فيه؛ لما أمَّلته من صلاح أمركم)**، وهو بهذا ينفي عن نفسه كل شبهة في إيثاره عمرًا دون إخوته، ويمحو كل شك تسرب إلى أبنائه في هذا الشأن؛ لأن ما كان من تساهل مع عمرو، وتجاوز في إعطائه الشيء اليسير لا يرقى للتحدث معهم بشأنه، وهو بهذا التعليل يحيي في نفوس أبنائه مكارم الأخلاق، ويحثهم على أن يكونوا أهلًا للكرم والعطاء؛ فإن الكريم يعطي على قدر كرمه، لا على قدر مَن يُعطيه، وإذا كان هذا الشأن مع الغريب فكيف به مع القريب بصفة عامة، ومع الأخ بصفة خاصة؟

وفي سبيل إحياء هذه المعاني في نفوس أبنائه يؤثر سعيد بن العاص الاسم الموصول (ما)؛ تعظيمًا لشأن الأمل الذي كان يرجوه في أبنائه، ومن ثَمَّ يكون سبيلًا لمدح أبنائه والثناء عليهم؛ استجلابًا لرضاهم، واستدرارًا لشفقتهم بأخيهم، واستمالة لقلوبهم بوضعهم في مكانة هي الأولى والأجدر بهم، والأليق بحالهم؛ بدليل إيثار الماضي (أَمَّلْتُه) الذي أفاد تحقق الرجاء والأمل فيهم، وحرف الجر (من) الدال على التبعيض[2]، وهو إذ يحاول أن يثير في أبنائه معاني الكرم والمروءة، ودواعي الإيثار والعطاء؛ ليخلص إلى بيان الدواعي والأسباب التي جعلته يؤثر عمرًا بالشيء القليل من ماله، فلولا ما

(١) (قط): تأتي في أحد الأوجه ظرف زمان لاستغراق ما مضى، وهذه بفتح القاف وتشديد الطاء مضمومة في أفصح اللغات، وتختص بالنفي يقال: (ما فعلته قط). ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب صـ٢٣٢.

(٢) ينظر الجنى الداني في حروف المعاني ص٤٣.

عَلِمه من مكارم أخلاق أبنائه، وما رآه عليهم من الصلاح، وما رجاه فيهم من الخير ما أعطاه شيئًا، وما خَصَّه بالقليل.

ومن أبرز سمات حوار سعيد بن العاص التلطف في خطاب أبنائه، واللين والرفق في المعاملة، ولا شك في أن الرفق مع الأبناء من أنجح الوسائل في التأديب، ومن أقوى الطرق في الوصول إلى قلوبهم، وقد أرشد رسول الله ﷺ إلى التحلي به، والترغيب فيه، والحرص عليه؛ حيث قال: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّه "(١).

كما اتسم الحوار بالتربوية والمنهجية؛ حين سمح للطرف الآخر بالحوار والمناقشة، واتسع صدر الأب لقبول النقد والمراجعة، وذلك حين أعطى أبناءه الفرصة في الرد على حواره، وسمح لهم بإبداء وجهة نظرهم، ثم أخذ في الرد عليهم، وتفنيد حججهم، فاستطاع الأب إدارة الحوار بشكل ناجح، يُظهر تَمكّنه من مهارة الحوار، وهذا يجعل الحوار يؤتي ثمرته التي تعكس مدى ثقة الأطراف المتحاورة بأنفسهم وقدراتهم.

وإلى هنا يُنْهِي سعيد بن العاص الحوار مع أبنائه عند هذا الحد، آمرًا لهم بأن يدخلوا المخدع، وفي عزمه أن يُثبت لهم صدق كلامه، وقد بذل لهم من الأقوال ما فيه الحجة، وحان دور الفعال التي تؤيد المقال، وتقطع الشك باليقين في الحال، مما سيتضح في المطلب الآتي إن شاء الله تعالى.

(١) الحديث عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ في سنن الترمذي، باب ما جاء في التسليم على أهل الذمة، ٥/ ٦٠، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

المطلب الثالث

بلاغة أسلوب الحوار في الوصول إلى اقتناع الأبناء بوصية أبيهم

في ختام الوصية أراد سعيد بن العاص أن يُثْبِت لأبنائه صحة رأيه، وصواب وجهة نظره ـ حين أمرهم بمؤازرة أخيهم عمرو، ومناصرته، والنزول على رأيه ومشورته ـ؛ لِمَا ذَكَرَه من صفات عَدَّدها في مطلع الوصية، حتى يجتمعوا على كلمة واحدة، فتقوى شوكتهم، ولا يستطيع أحد أن يهزمهم، ومن ثَمَّ أراد في ختام الوصية أن يُثْبِتَ لهم بالدليل العملي أنه ما فَضَّل أخاهم لأجل ميل قلبي تجاهه، وإنما لأهليته، وأحقيته بهذه المكانة، واتصافه بالصفات التي جعلته أهلًا للزعامة؛ لذا أمرهم بالدخول إلى المخدع ليجري حوارًا آخر مع ابنه عمرو، على مرآى ومسمع من إخوته، ودون علم مسبق لعمرو بهذا الحوار؛ ليعلموا صدق حدس أبيهم، وفراسة أخيهم، ونجابته التي جعلته مؤهلًا للقيادة؛ ولذا أرسل سعيد إلى ابنه عمرو فأحضره، وأجرى معه الحوار الآتي **فقال: «يا بُنَي؛ إني عليك حَدِبٌ[1] مشفق[2]، لِصَغرِ سِنِّك، ونفاسَة[3] إخوتك على مكانك مني، وإني لا آمن بغتة الأجل، ولى كنزٌ ادخرته لك دون إخوتك، وها أنا مُطْلِعك عليه، فاكتم أمره».**

فقال: «يا أبتِ؛ طال عُمْرك، وعلا أَمْرك، إني لأرجو أن يُحْسِنَ الله عنك الدفاع، ويطيلَ بك الإمتاع، فأما ما ذكرتَه من شأن الكنز، فما يعجبني أن أقطع دون إخوتي أمرًا، وأزرع في صدورهم غِمْرًا ».

فقال: «انصرف يا بُنَي، فداك أبوك، فوالله ما لي من كنز، ولكني أردتُ أن أَبْلُوَ رأيك

(١) الحدب: ما ارتفع من الأرض، يقال: حدب عليه وتحدب عليه: أي متعطف متحنن عليه، ينظر الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي،، حدب، ١/ ١٠٨، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م.

(٢) الشفيق: الناصح الحريص على المنصوح الخائف عليه. ينظر لسان العرب، شفق، ١٠/ ١٨٠

(٣) نَفِسَ عليه بالشيء، بالكسر: ضَنَّ به ولم يره يستأهله؛ وكذلك نَفِسَه عليه ونافَسَه فِيه. ينظر لسان العرب، نفس، ٦/ ٢٣٨.

في إخوتك وبني أبيك».

فانطلق عمرو، وخرج إخوتُه من المخدع، فاعتذروا إلى أبيهم، وأعطوه مَوْثِقَهُم على اتباع مشورته[1].

وبالتأمل في هذه آخر فقرة من الحوار في الوصية نجد أن سعيدًا خاطب ابنه بقوله: **(يا بُنَي؛ إني عليك حَدِبٌ مشفق، لِصَغِر سِنِّك، ونفاسَة إخوتك على مكانك مني)**.

فبدأ سعيد حواره مع ابنه عمرو بأسلوب النداء ـ كما فعل في حواره السابق مع أبنائه ـ؛ ليصغي إليه بذهن متيقظ، وقلب واع؛ تنبيهًا على أهمية ما سيُلقى عليه، وإبرازًا لمكانته في نفسه، وقد استمال قلبه في ندائه بلفظ (يا بني)؛ ترقيقًا لفؤاده، وإبرازًا لشدة حرصه عليه، وأنه لا يبتغي من وراء نصحه إلا الخير، وهذا ما يُشعِر به لفظ البنوة ـ وذلك كما فعل في حواره مع إخوته ـ ثم مَهَّد لحواره مع عمرو بالتأكيد على بيان مشاعره تجاهه بقوله: (إني عليك حَدِبٌ مشفق)، وقد آثر الأسلوب الخبري المؤكد بأكثر من أداة؛ حيث أكده بـ(إنَّ)، واسمية الجملة، وتقديم الجار والمجرور (عليك)؛ فقد أراد سعيد إبراز شدة حرصه على ابنه عمرو، والمبالغة في تصوير مشاعره تجاهه، وبيان رغبته الشديدة، وتفانيه في إخلاص النصح له؛ بتقرير مضمون كلامه لدى ابنه، وأيَّد هذا تقديم الجار والمجرور (عليك)، كما كان لتنكير المسند (حَدِب) دلالة على شدة عطفه وحنانه الفياض، وصياغة الخبر الثاني في صيغة اسم الفاعل (مُشْفِق) أفادت ثبوت معنى الإشفاق ورسوخه في قلب أبيه، وعظم خوفه وحرصه الشديد عليه[2]؛ لأنها فطرة فطر الله عليها الآباء تجاه الأبناء.

ثم علل سعيد سبب شفقته وعطفه على عمرو بقوله: (لِصغر سِنِّك، ونفاسة إخوتك

(١) كتاب أنباء نجباء الأبناء ص ١٠١، وجهرة خطب العرب ٢/ ٢٢٧.

(٢) لما تفيده صيغة اسم الفاعل من الدلالة على الحدث والحدوث وفاعله. ينظر شرح التصريح على التوضيح تأليف/ خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاوي الأزهري، ٢/ ١١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠ م.

على مكانك مِنِّي) وهو بهذا التعليل يؤكد على مكانة عمرو عنده، وغَيْرة إخوته منه بسبب هذه المنزلة التي احتلها عمرو من قلبه، ورؤيتهم أنه ليس أهلًا لها، ولا يستحقها، وكأن قوله: (إني عليك حدب مشفق) أثار الدهشة في نفس عمرو، ودعاه إلى التعجب والاستغراب، فكأن الفضول بلغ منه مبلغًا جعله يتساءل عن سبب إشفاق أبيه عليه، ودواعي خوفه وحرصه الشديد، فجاءت الجملة التعليلية: (لِصِغَرِ سِنِّك، ونفاسَة إخوتك على مكانك مني)، وكأن جملة التعليل بمنزلة الجواب عما عساه أن يكون قد دار في ذهن عمرو، ومعللة لسبب إشفاق سعيد على ابنه، وخوفه عليه، ودخول لام التعليل على الجملة الاسمية المصدرة بالمصدر(لِصِغَرِ سِنِّك) وعطف جملة (ونفاسة إخوتك...) عليها أفاد تأكيد المعنى، وترسيخه في الذهن؛ لما تفيده الجملة الاسمية من الدلالة على الثبوت والدوام الذي يقتضي تقرير الكلام وتأكيده، كما أفاد التعليل توكيد الكلام وتقريره؛ لأنه برهان على صحته.

وفي حوار سعيد هذا مع ابنه عمرو اختبار له، وابتلاء له في إخوته؛ لأن طبيعة النفس البشرية تحب أن تكون في المقدمة دومًا، وألا يكون هناك من يسبقها في الأفضلية، وكون سعيد يلفت انتباه عمرو إلى مشاعر إخوته تجاهه، وما تضمره نفوسهم نحوه من غَيرة ـ بسبب هذه المنزلة التي له عند أبيه ـ كل هذا من شأنه أن يؤكد على السبب في حرص سعيد وإشفاقه على عمرو، ويعلل لشدة خوفه عليه، ويقرر لمكانته في قلبه، وحبه الشديد له، وهذا من شأنه أن يستميل قلب عمرو تجاه أبيه، وأن يأخذ بعقله وجوارحه للإقبال على توجيهه، وقبول نصحه إياه، والاستجابة لإرشاداته وتوجيهاته، ومن جانب آخر فإن سعيدًا أراد أن يُمَهِّد لما سيطلبه منه بعد ذلك، ويؤسس لما سيأمره به؛ حتى لا يتردد لحظة في تنفيذ أوامره وإرشاداته، ولا يتخالج إليه شك في نصيحة أبيه.

وعلى الجانب الآخر من الحوار فإن سعيدًا يعلم أن إخوة عمرو يستمعون إلى حواره مع عمرو، ويتربصون بأخيهم؛ لتكون لهم المنزلة العالية عند أبيهم، في الوقت الذي يجهل فيه عمرو ذلك، وعليه سيتصرف عمرو بتلقائية، وسيكون رد فعله على طبيعته، دون أدنى تكلف أو تصنع في الحوار مع أبيه.

ثم يؤكد سعيد على حقيقة من حقائق العقيدة وثوابت الدين، تلك الحقيقة التي لا ينكرها ولا يشك فيها أحد، وهي الموت، فيقول: (**وإني لا آمن بغتة الأجل، ولى كنزٌ ادخرته لك دون إخوتك، وها أنا مُطْلِعك عليه، فاكتم أمره**).

واستعمل الأسلوب الخبري المؤكد بـ (إنّ) واسمية الجملة في قوله: (وإني لا آمن بغتة الأجل)؛ تقريرًا لمضمون الخبر، وتأكيدًا على حقيقة مباغتة الموت، وبعثًا لليقين بلقاء الله في الوقت الذي لا يعلمه إلا الله، كأنه أراد بتأكيد الكلام ـ مع أن عمرًا لا ينكر ذلك ـ التنبيه إلى خطورة الأمر، وأنه مما ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار، ولعل هذا الحوار من سعيد بمنزلة التمهيد لما سيذكره لابنه عمرو في قوله: (ولي كنز ادخرته لك دون إخوتك)، فإن احتفاظ سعيد بهذا الكنز ـ الذي ادعى وجوده على سبيل الحيلة والاختبار لابنه كما سيتبين فيما بعد في ختام الوصية ـ مع كونه موقنًا ببغتة الأجل هو من قبيل أسباب عدم اطمئنانه على ابنه، وحرصه وشفقته عليه؛ لأنه يعلم غَيْرة إخوته منه، وهذه الغيرة قد تدفعهم إلى هضم حق أخيهم، أو محاولتهم بخسه وظلمه.

وتقديم سعيد للجار والمجرور (لي) أفاد التنبيه من أول الأمر إلى أن المجرور خبر لا نعت، وتنكير المسند إليه (كنز) يفيد التعظيم لشأن الكنز، فقد حرص سعيد على إغراء ابنه عمرو بشتى طرق الإغراء، وتشويقه، وفي هذا تحريض على الاستجابة لأمره، وتأييد هذا من جملة النعت بعده (ادَّخَرْتُهُ لك دون إخوتك)، وهذه الجملة بما فيها من مسند جاء بصيغة الماضي فأفاد تحقق الوقوع، وإرادة إفراد عمرو بملكية هذا الكنز المستفاد من الجار والمجرور (لك)، وعدم مشاركة إخوته له المستفاد من قوله: (دون إخوتك)، كل هذه الأمور كافية لحث عمرو على الاستجابة لما سيأمره أبوه به بشأن هذا الكنز.

ولقد كان سعيد بن العاص حريصًا أشد الحرص على ترابط أبنائه، واتحادهم وعدم تفرقهم، وانقيادهم تحت رأي ومشورة أخيهم؛ ليكون في اتحاد كلمتهم الدرع الواقي لهم من مكائد الناس وشرورهم؛ لذا قام بهذه الحيلة التي صنعها مع عمرو ـ من إجراء محاورة معه على مرأى ومسمع من إخوته ـ وهو على يقين تام بعدم موافقة عمرو على

صنيعه معه، وحاول سعيد بكل الطرق إغراء عمرو وإقناعه بأنَّ ما يقوم به من تخصيصه بالكنز إنما هو في مصلحته، وأن الدافع لأبيه على هذا هو محبته إياه، وحرصه الشديد على مصلحته؛ ليرى إخوته رَدَّ فعله، حتى يعلموا أنهم مخطئون في زعمهم.

ومن جملة ما أغرى به سعيد ابنه ترغيبه في الاطلاع على الكنز المزعوم؛ رجاء أن يثير فيه نوازع الحرص وحب التفرد به، فقال مخاطبًا ابنه عمرو: (وها أنا مطلعك عليه)، فلفت انتباهه إلى أهمية ما سيلقى عليه، وأثار شوقه وزاد رغبته في رؤية الكنز، وأكد على عزمه الشديد في هِبَةِ هذا الكنز له دون إخوته حين عبر عن المسند إليه بضمير التكلم (أنا)، معلنًا كامل أهليته بالتصرف في الكنز، وأحقية هِبته لمن يشاء دون أدنى سلطة من أحد على تصرفاته، والتعبير عن المسند بصيغة اسم الفاعل (مُطلِعك) له دور في الدلالة على ثبوت الاطلاع على الكنز، وأنه بصدد معاينته، وكأنه في حوزته وملكيته؛ بدليل التعبير بالجار والمجرور (عليه) الذي أشعر بتمكنه منه.

وقد سارع سعيد بأمر ابنه بكتمان شأن هذا الكنز بقوله: (فاكتم أمره) فعطف الجملة بالفاء؛ مسارعة إلى إبراز رغبته في استجابة عمرو لأمره؛ بعدم التحدث بشأن الكنز، وعدم البوح لأحد به؛ لذا عبر بصيغة الأمر من الكتمان التي يدل معناها على السكوت عن ذكر الشيء، وعدم الخوض في الحديث عنه[1]، فضلًا عن إعلام أحد به، أو إِطْلَاعِه عليه.

وقد لُقِّب عمرو بن سعيد[2] بالأشدق؛ لفصاحته، وطلاقة لسانه، وهو حقًا جدير

(١) ينظر الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ص٢٨٧.

(٢) هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ابن عبد شمس الأموي القرشي، أمير من الخطباء البلغاء، كان واليًا على مكة والمدينة لمعاوية وابنه يزيد، ولما قدم الشام أحبه أهلها، ولما طلب مروان بن الحكم الخلافة سانده عمرو، فجعل له مروان بن الحكم ولاية العهد بعد ابنه عبد الملك، ولما ولي عبد الملك الخلافة أراد خلعه من ولاية العهد فنفر عمرو، واستولى عمرو على دمشق وبايعه أهلها بالخلافة، ولم يزل عبد الملك يتربص به حتى تمكن منه فقتله سنة ٧٠ هـ. ينظر فوات الوفيات ٣/ ١٦١، تهذيب التهذيب ٨/ ٣٨، الأعلام للزركلي ٥/ ٧٨.

بهذا اللقب؛ فقد كان رَدُّه على أبيه في غاية الفصاحة والبيان، وجمع في جوابه بين محاسن الألفاظ، وسمو المعاني، وعذوبة اللسان، فقد خاطب أباه قائلًا: «**يا أبتِ؛ طال عُمْرك، وعلا أَمْرك، إني لأرجو أن يُحْسِنَ الله عنك الدفاع، ويطيلَ بك الإمتاع، فأما ما ذكرتَه من شأن الكنز، فما يعجبنِي أن أقطع دون إخوتي أمرًا، وأزرع في صدورهم غِمْرًا**[1]».

وإيثار أسلوب النداء ـ كما صنع معه سعيد في خطابه ـ يستدعي إحضار ذهنه، وجذب انتباهه، وإلهاب شوقه لما سيلقى عليه بعد النداء، والنداء بـ (يا) مع أن الحضرة تغني عنها؛ إبرازًا لعلو شأنه، ورفعة منزلته، وارتفاع مقامه، فمنزلة الوالد لا تضاهيها منزلة، ثم ناداه بـ (يا أبتِ) مبالغة في وصفه بأسمى معاني الرأفة والحنان، واستدرارًا لأرقى ألوان الشفقة والرحمة[2].

وجاء الاعتراض بالجملتين: (طال عمرك، وعلا أمرك) مؤكِّدًا شدة محبته لأبيه، وحرصه على البقاء في كَنَفِه، ورغبته في ارتقاء أبيه مكانة ومنزلة رفيعة؛ لأن الغرض من الجملتين الدعاء لأبيه بطول العمر، وعلو المكانة والشأن؛ ولذا عبر بالماضي (طال، علا) مبادرة إلى حصول الدعاء وشدة الرغبة في تحققه، وكان كمال الانقطاع سببًا لترك العطف في قوله: (إني لأرجو أن يحسن الله عنك الدفاع) على الجملة الإنشائية الدعائية (يا أبتِ...)؛ لاختلافهما في الخبرية والإنشائية لفظًا ومعنى.

وقد أضفى على العبارتين مزيدًا من عناصر الجمال ما جاءتا عليه من السجع المرصع؛ حيث اتفقت الجملتان: (طال عمرك، وعلا أمرك) في الوزن والقافية، بالإضافة إلى الجناس المضارع بين اللفظتين: (عمرك، وأمرك)؛ حيث اختلفت الكلمتان في الحرف الأول منهما، وتقارب مخرجهما، مع اختلافهما معنى، فتعانق السجع والجناس

(١) الغِمْر: الحقد والغل في الصدر. ينظر الصحاح، غمر، ٢ / ٧٧٣.

(٢) أصل (يا أبتِ) أن يقال: يا أبي، إلا أن ياء المتكلم حذفت وعوض عنها التاء. ينظر شرح المفصل للزمخشري، تأليف: يعيش بن علي بن يعيش الموصلي، ١/ ٣٤٩، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

في التعبير عن مكنون القلب، وإبراز صدق مشاعر الابن تجاه أبيه، والتأكيد على رغبته في إرادة الخير له.

وقد آثر عمرو في حواره مع أبيه الأسلوب الخبري المؤكد بأكثر من أداة في قوله: (إني لأرجو أن يُحسِن الله عنك الدفاع، ويطيل بك الامتاع)؛ حيث أكد مضمون الخبر بـ(إنَّ) واسمية الجملة ولام التأكيد الداخلة على المضارع؛ إبرازًا لشدة رغبته في الحرص على أبيه، ومحبته له التي تستدعي أن يخاف عليه عند الوقوف بين يدي الله؛ لأنه يُعرِّض نفسه للعقاب بعدم العدل بين الأبناء، وحرصه على إيصال هذه المشاعر وتقريرها في نفس أبيه؛ كي ينبهه من طرف خفي إلى عِظَم الخطأ الذي سيقع فيه؛ إذ غرس في نفوس أبنائه ـ دون أن يشعر ـ بذور الحقد والضغينة، بالتفرقة والتمييز بينهم في العطاء.

وقد آثر المضارع (أرجو)؛ إبرازًا لشدة حرصه على أبيه، وفرط محبته إياه، ورجاء الخير له على الدوام، ويؤيد هذا تقييد الرجاء بالمصدر المؤول (أن يحسن) فرغبته في إحسان دفاع الله عن أبيه ثابتة باعتبار الاسمية المستفادة من تأويل المصدر، ومستمرة باعتبار المضارع الذي دخلت عليه (أن)، ومجيء المسند إليه معرفا بالعلمية (الله) لاستحضاره في ذهن السامع، فإنه في مقام الترغيب في فعل ما يرضي الله، والعدل بين الأبناء، ومثل هذا المقام لن يُقبَل دفاع من الأشخاص؛ لأن الأشخاص يحكمون بالأهواء؛ فمحاولة إرضاء الجميع أمر لا يتسنى لأحد؛ لذا فإن المعتبر برضاه وسخطه هو الله وحده، والمعتد بدفاعه هو الله وحده، هذا بالإضافة إلى ما يضفيه التعريف بالعلمية من التعظيم المترتب على دفاع الله عن أبيه، فالله لا يترك أولياءه، بل يحميهم ويحوطهم بعنايته، وتقديم الجار والمجرور (عنك) على المفعول (الدفاع)؛ اهتمامًا بشأنه، واعتناء بأمره؛ مسارعة إلى بيان شدة رغبته في حصول دفاع الله عنه، ومن كان الله مدافعًا عنه فلا خوف عليه أبدًا.

وعطف جملة: (ويطيل بك الإمتاع) على جملة: (أن يحسن الله عنك الدفاع) للتوسط بين الكمالين، حيث اتفقتا في الخبرية لفظًا ومعنى، وبينهما جامع، فقد اتحد

المسند إليه فيهما، وهذا الوصل ينبئ عن إبداع عمرو بن سعيد في التعبير، وتمكنه ودقته من صوغ عباراته؛ فقد أراد أن يُرَغِّب أباه في الجمع بين خيري الدنيا والآخرة؛ فأما خير الآخرة فقد أجمله في قوله: (أن يحسن الله عنك الدفاع)، ومراده بذلك أن يكون من أولياء الله المتقين، الذين يجعلون تقوى الله حاجزًا لهم من الوقوع في الآثام، ولعله قصد به قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]، وأما خير الدنيا فقد أجمله في قوله: (ويطيل بك الإمتاع) أي: يظل بقاؤه بين أهله وعشيرته متعة لهم، وسعادة تغمرهم، وسرورًا يملأ عليهم حياتهم، فأوجز الكثير من المعاني تحت هذه الألفاظ، وجعل من تقديم الجار والمجرور (بك) سبيلًا إلى إبراز العناية بأمره، والاهتمام به، وشدة الرغبة في حصول الإمتاع بأبيه طيلة بقائه في أهله، وهذا ما أيدته باء الإلصاق حين دخلت على كاف الخطاب.

وكان للسجع المطرف في خطاب عمرو لأبيه دوره في التأثير على النفس، وبسط سيطرته على القلب، والأخذ بمجامع العقل، وبرز ذلك في قول عمرو: (إني لأرجو أن يُحسِن الله عنك الدفاع، ويطيل بك الامتاع)، فالفاصلتان: (الدفاع، والإمتاع) مختلفتان وزنًا، متفقتان رويًا؛ وقد عمل هذا السجع على إطراب الأذن، وانشرح الصدر للإقبال عليه، بالإضافة إلى لزوم حرف الألف قبل الروي، فتهللت النفس سرورًا بمعانيه، واستبشر القلب لغرضه ومراميه، فاستقر المعنى في الأذهان، وتَمَكَّن من الجنان.

وبعد أن مَهَّد عمرو في خطابه لأبيه بهذا التمهيد الذي يتناسب ومقام الأبوة، أخذ في إبداء رأيه تجاه ما ذكره له أبوه بخصوص الكنز، وآثر فاء الفصيحة[1] التي تفيد بدلالتها على كلام مُقَدر فحواه: إذا كنتَ تعلم صِدْقِي فيما قلتُ فذاك رأيي فيما عَرَضْتَ، ثم بدأ يُفَصِّل له ذلك في قوله: **(فأما ما ذكرتَه من شأن الكنز، فما يعجبنِي أن أقطع دون إخوتي**

(١) سميت الفاء فصيحة لأنها تفصح عن محذوف وتفيد بيان سببيته. ينظر الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء الكفوي، ص٦٧٦، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.

أمرًا، وأزرع في صدورهم غِمْرًا)، وآثر التعبير بـ (أما) لما فيها من معنى الشرطية والمجازاة، فهي مؤولة بـ(مهما يكن من شيء)؛ لأنها قائمة مقام أداة الشرط وفعل الشرط، كما أنها حرف تفصيل وتوكيد[1]، فقد أراد التوكيد على معنى مراقبة الله في السر والعلن، وأنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يأخذ شيئًا أو يستأثر بشيء دون إخوته؛ لأن هذا سيوغر صدورهم تجاهه، ويزرع البغضاء والشحناء بينهم، مما يؤدي إلى قطع الأرحام، ويؤذِن بِشَرٍّ تعجز عن وصفه الأقلام، ويؤيد هذا التعبير عن المسند إليه بالموصول (ما)؛ تهوينًا من شأن هذا الكنز، وتحقيرًا له في نظره، وأنه لا يأبه له، ولا يلتفت إليه.

وقد كَنَّى عمرو عما ذكره أبوه بخصوص الكنز وما أراده من اختصاص عمرو به دون إخوته بقوله: (وأما ما ذكرته من شأن الكنز)، فأخفى بها الحديث عن الكنز وحاله، وما كان من شأنه ومآله، وكأنه بهذا يغض الطرف عن ذكره، ويتحاشى الخوض في أثره؛ إيماءً من طرف خفي إلى أن مِثل هذا الفعل لا ينبغي أن يكون، وتفضيل أبيه له بهذا الكنز أمر غير مقبول؛ لعل سعيدًا يتنبه إلى خطئه، ويتدارك الأمر قبل أن يخرج عن طوعه، وتأييد هذا من استعمال (من) الجارة التي جاءت بمعنى (عن)[2].

وقدم الظرف وما أضيف إليه (دون إخوتي) على المفعول (أمرًا)؛ رغبة منه في بيان منزلة إخوته عنده، وتقديمهم على كل شيء، وتحاشيًا من أن يكون تباعد الألفاظ وسيلة إلى تباعد المكانة في القلوب؛ فقدَّمهم اعتناء بشأنهم، وإبرازًا لمكانتهم وأهميتهم عنده، وأنه مهما صدر منهم في حقه فهم في الأصل إخوته، وأبناء أبيه، وصلة رَحِمِه التي لا يصح بحال من الأحوال أن يقطعها.

وتنكير المفعول (أمرًا) يفيد العموم والشمول لأي أمر سواء أكان عظيمًا أم حقيرًا،

(١) ينظر المقتضب للمبرد، ٣/ ٢٧، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، والجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، ص٥٢٢، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب ص٨٠.
(٢) ينظر الجنى الداني ص٣١١.

وربما أفاد التقليل؛ فإن حفاظ عمرو على توطيد العلاقة مع إخوته، ورغبته في صلة رَحِمِه، هي غايته الأولى، وموضع عنايته واهتمامه، ولن يقدِّم شيئًا عليها؛ ولذا آثر المصدر المؤول (أنْ أقطع) للدلالة على ثبوت رغبته في إشراك إخوته وعدم تفرِّده في كل الأمور باعتبار الاسمية المستفادة من تأويل المصدر، واستمرارها باعتبار المضارع الذي دخلت عليه (أن)؛ فكان المصدر المؤول دليلًا على حاله، ومُؤَيِّدًا لرغبته في صِلة إخوته من خلال مَقَاله، ومُظْهِرًا لتقواه وصلاحه، ومراقبته لله ـ عزَّ وجلَّ ـ حتى ولو كان ذلك في غير منفعته ـ في ظاهر الأمر ـ إلا أن في عقباه الخير.

وتقديم الجار والمجرور (في صدورهم) على المفعول (غِمرًا)؛ إبرازًا للأثر المترتب على الاستجابة لأمر أبيه، ووقع ذلك على قلوب إخوته؛ ولذا كان تنكير المفعول (غِمرًا) أشد دلالة على تعظيم شأن المأمور به، وتهويل أمره وتفخيمه؛ لأن عظمة النتائج المترتبة على الفعل توحي بعظمة الفعل نفسه، والتعبير بالظرف (في) للدلالة على تمكّن الحقد والبغضاء من الصدور إن قام عمرو بما أمره به أبوه من الاحتفاظ بالكنز دون إخوته، وعِظَم الأمور المترتبة على ذلك.

ولا يخفى دور السجع المتوازي بين اللفظتين: (أَمْرًا، وغِمْرًا)، وما أحدثه في النفس من توضيح وتمكين للمعنى في الأذهان، وترسيخ وتقوية له في العقول، هذا بالإضافة إلى جرسه الرنان، ووقعه على الأسماع والجَنان.

وقد صور عمرو حاله مع إخوته ـ إن هو احتفظ بالكنز دون إخوته كما يأمره أبوه ـ من خلال الاستعارة المكنية في قوله: (وأزرع في صدورهم غِمرًا)، وفي ذلك تجسيد رائع لحاله مع إخوته، وتصوير دقيق لشأنه معهم، فكأنه سيقوم بغرس الحقد في صدورهم غرسًا، وزراعة البغضاء في قلوبهم تجاهه زرعًا، وتجسيد الاستعارة لهذا المعنى يزيد من قوة أثره على النفس، وشدة وقعه على القلب، ويشعر بالمبالغة في تأكيد المعنى وتفخيمه، وإبراز الأثر المترتب عليه، فبدلًا من أن يغرس الأب في أبنائه المحبة، ويقوِّي أواصر المودة، إذ به يرسخ لمشاعر الحقد والبغضاء، ويثير الكراهية والشحناء، ولا

يخفى ما في ذلك من حسن البيان، وروعة التصوير.

وبعد أن أنهى عمرو حواره تهلّل وجه سعيد مستبشرًا؛ فقد ثبت بالدليل صحة فراسته في ابنه عمرو، وظهر صدق حدسه الذي كان السبب في الوصية التي أمر فيها أبناءه باجتماع كلمتهم ومشورتهم تحت زعامة عمرو، وسرعان ما أنهى سعيد حواره معه بقوله: (انصرف يا بُنَي ـ فداك أبوك ـ فوالله ما لي من كنز، ولكني أردت أن أَبْلُوَ رأيك في إخوتك وبني أبيك).

وقد انتهج سعيد في حواره هذا نهجًا مخالفًا لما سبق؛ ففي بداية كل حوار كان يخاطب أبناءه قائلًا: (يا بَنِيَّ) وخاطب عمرًا قائلًا: (يا بُنيَّ)، ولكنه هذه المرة قال: (انصرف يا بُنَيَّ)، فبادر بالأمر (انصرف) ثم قال: (يا بُنَي)، وكأنه ظفر بضالته التي يبحث عنها، وبغيته التي يسعى إليها، ثم سرعان ما طلب من عمرو أن ينصرف؛ حتى يرى ما يصنع أبناؤه بعد هذا الحوار، وأتبع الأمر بالانصراف قوله: (فداك أبوك) وهذه الجملة معترضة بين قوله: (انصرف يا بني) وقوله: (فوالله ما لي من كنز) والغرض من الاعتراض بها الدعاء لعمرو، والإيماء إلى السعادة التي ملأت قلب الأب، والفرحة التي علت وجهه، حتى بلغت مبلغًا يضحي فيه بنفسه مقابل أن يحيا ولده مطمئنًا هانئ العيش.

وهنا أعلن سعيد لابنه عمرو عن حيلته التي دَبَّرها، والاختبار الذي أَعَدَّه له؛ كي يعلم منزلة إخوته عنده، ومشاعره تجاههم، ومدى تمسكه بإخوته، وحفاظه على صلة رَحِمه، وذلك لعلمه باستماع إخوته لحواره؛ حتى يذعنوا لرأيه، وينزلوا على مشورته، ويطمئنوا إلى اختيار أبيهم، فقال: (فوالله ما لي من كنز ولكني أردت أن أَبْلُوَ رأيك في إخوتك وبني أبيك)، وجاء التعليل للأمر بالانصراف بالفاء المتصدرة للقسم بلفظ الجلالة: (فوالله)؛ مسارعة إلى كشف العلة وبيان السبب الكامن وراء هذا الأمر بالانصراف، مؤكدًا عدم حيازته لأي كنز بأكثر من طريق للتوكيد؛ إذ بدأه بالقَسَم، ثم تقديم المسند (لي)، ودخول (من) الزائدة على المسند إليه (كنز)، وما أشعر به التنكير في

سياق النفي من انتفاء أي نوع أو صنف من أصناف الكنوز.

ولكن حوار سعيد هنا يوهم أنه من قبيل الكذب، فقد اعترف لابنه في بداية حواره بأنه يمتلك كنزًا، ثم هو هنا يقسم أنه لا يمتلك أي كنز؛ لذا استدرك كلامه ببيان العلة والسبب في حيلته التي قام بها حين قال: (ولكني أردت أن أَبْلُوَ رأيك في إخوتك وبني أبيك)، فأعلن عن حيلته، وكشف عن غرضه من الحوار معه، وأبرز صدقه فيما ادعاه، وحسن سريرته ونواياه، وبهذا يؤكد سعيد على الغاية التي لأجلها أنشأ الوصية، والهدف الذي سعى إليه منذ البداية، وهي رغبته في اتحاد أبنائه وترابطهم، وتقوية عرى التماسك وأواصر الإخاء بينهم.

هكذا انتهى حوار سعيد ـ الذي قام على الحيلة والذكاء ـ مع ابنه عمرو، ونجح عمرو في الاختبار، وفي ختام الوصية انصرف عمرو، وخرج إخوتُه من المخدع، فاعتذروا إلى أبيهم، وأعطوه مَوْثِقَهُم على اتباع مشورته، وما كان لهذا الحوار أن يؤتي ثمرته المرجوة، وما كان لأبناء سعيد بن العاص أن يقبلوا نصيحة أبيهم، ويذعنوا لإرشاداته وتوجيهاته، ما كان كل هذا ليحدث لولا أسلوب سعيد بن العاص وطريقته في الحوار مع أبنائه، وبناء حواره معهم على أسس الحوار البَنَّاء، وإشراك أبنائه في الحوار، والاستماع إليهم، وتفنيد حججهم، ومحاولة إقناعهم بشتى سبل الإقناع، من أجل الوصول إلى الغاية التي سعى إليها، والهدف الذي خطط له؛ كي يكون عونًا لأبنائه على طاعته، والبر به.

الخاتمة

وفي ختام هذه الدراسة التي خرجت فيها الوصية في أسلوب حواري شائق، أثار دواعي التطلع لمعرفة أحداثها، والنهاية التي كتبت لها البقاء، يمكن للبحث أن يبرز أهم النتائج التي توصل إليها على النحو الآتي:

أولًا: تعد وصية سعيد بن العاص دليلًا على امتلاكه ناصية البيان؛ فقد استطاع أن يؤلف بين الألفاظ والمعاني في صورة حوارية رائعة، تأخذ بعقول أبنائه، وتستميل قلوبهم؛ ليصل القائل من خلالها إلى الغرض الذي أنشأ من أجله الوصية، وهو اتحاد أبنائه وترابطهم، واجتماعهم على كلمة رجل واحد.

ثانيًا: اتسم أسلوب الحوار في الوصية باللين والسهولة، وتميزت ألفاظه بالعذوبة والسلاسة، كما ظهر جانب الرفق في أبهى صورة، وأجمل حُلَّة؛ إذ استطاع سعيد بن العاص أن يأخذ بقلوب بنيه، ويأسر أفئدتهم؛ كي يقنعهم بوجهة نظره، من غير أن يسلك طريق الإجبار أو الإكراه.

ثالثًا: تميزت طريقة الحوار بالذكاء والحيلة، فقد كان بإمكان سعيد بن العاص أن يكتب الوصية ولا يعلم أحد بشأنها إلا بعد وفاته، أو يخبر بها ابنه عمرًا فقط، أو يسلك بها مسلك الأمر دون توضيح وجهة نظره بالأدلة والبراهين، ولكنه أراد أن تَطبَّق الوصية عن اقتناع؛ لأن الإيمان بالشيء طريق إلى التضحية من أجله، وبذل النفس والنفيس في سبيله.

رابعًا: خرج الحوار مخرج التشويق في مواضع من الوصية، واختلفت الطرق التي سلكها سعيد في تحقيق هذا؛ فتارة يأتي من خلال أسلوب الشرط، وأخرى يأتي بطريق الاستفهام، وثالثة يأتي بطريق التفصيل بعد الإجمال، ورابعة يكون بشبه كمال الاتصال، فكان التشويق عنصرًا فعالًا من عناصر الحوار في الوصية؛ إذ استطاع سعيد بن العاص أن يتخذ منه وسيلة لإقناع أبنائه، وحثهم على تنفيذ وصيته.

خامسًا: من أبرز سمات الحوار في الوصية ما جاء في طريقة سعيد بن العاص في

التعامل مع أبنائه؛ إذ أحسن الاستماع إلى حوارهم، وأنصت لرأيهم، وسمح لهم بحرية التعبير، وإبداء ما يجول بخواطرهم، وما يدور بأذهانهم، كما أنه لم يأخذ أبناءه بالإكراه والإجبار، بل حاول بشتى الطرق أن يصل إلى غايته وهدفه المنشود بالإقناع والرضا.

سادسًا: لما كان الحوار في الوصية قائمًا على محاولة إحدى الطرفين إقناع الآخر بوجهة نظره، كان لوسائل التوكيد دور مؤثِّر في الحوار؛ إذ اختلفت طرق التوكيد ـ على النحو الوارد في البحث ـ وتعانقت جميعها في سبيل تحقيق الغاية التي من أجلها أنشئت الوصية.

سابعًا: اتخذ الحوار من الأساليب الإنشائية ـ وبخاصة أسلوب النداء ـ سبيلًا إلى جذب المخاطب، ولفت انتباهه، واستمالة قلبه؛ بغرض إقناعه، كما جاءت الأساليب الخبرية في الحوار ترغيبًا للمخاطب في قبول النصح والإرشاد، وحثًا له على الامتثال والاستجابة للناصح، وتأكيدًا على شدة الرغبة في إرادة الخير للمنصوح، وتقريرًا للإخلاص في النصيحة.

ثامنًا: أَثْرَتْ الفنونُ البلاغية المختلفة لغة الحوار في الوصية، وناسب كل فن منها المقام والسياق وحال المخاطب؛ رغبة في الوصول إلى إقناع الطرف الآخر.

تاسعًا: كان للمحسنات البديعية لمستها الجمالية التي نثرت عبيرها في مواضعها من الوصية، وتنوعت بين السجع والجناس والطباق، وكان السجع أكثرها ورودًا، فأكدت المعنى، وقررت المضمون، وآذنت بوصول المعنى إلى القلب فور وصول اللفظ إلى السمع، وبهذا جنى الحوار ثمرته المرجوة.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١. أساس البلاغة للزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،١٤١٩ هـ، ١٩٩٨م.

٢. أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن عبد الواحد الشيباني، عز الدين ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤ م.

٣. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

٤. الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية.

٥. أنباء نجباء الأبناء للإمام الحافظ محمد بن أبي محمد بن ظفر المكي الصقلي (ت: ٥٦٥هـ)، تحقيق/ لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ه، ١٩٨٠م.

٦. بغية الإيضاح، تحقيق/ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، الطبعة السابعة عشر، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٧. تنوع الأفعال بين الفك والإدغام في الذكر الحكيم "دراسة بلاغية" أ. د/ إبراهيم صلاح الهدهد، مكتبة الإيمان للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٥م.

٨. جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة لأحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية بيروت، لبنان.

٩. الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، تحقيق: د/ فخر الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

١٠. الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، إعداد: يحيى بن محمد حسن بن أحمد زمزمي، دار التربية والتراث، مكة المكرمة، رمادي للنشر، الدمام، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

١١. الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، تأليف/ أجمد بن عبد الرحمن الصويان، دار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

١٢. الحوار في القرآن الكريم خصائصه التركيبية وصوره البيانية د/ محمد إبراهيم شادي، دار اليقين، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٣١ه، ٢٠١٠م.

١٣. خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني أ/ د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة.

١٤. خصائص بناء الجملة التعليلية. أ. د/ السيد أحمد موسى، بحث من مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، العدد الأربعون، ٢٠٢١م.

١٥. دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني. تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

١٦. سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

١٧. سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م.

١٨. شرح التصريح على التوضيح، تأليف/ خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاوي الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠ م.

١٩. شرح المفصل لابن يعيش،قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١م.

٢٠. شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

٢١. الصبغ البديعي في اللغة العربية. تأليف / د. أحمد إبراهيم موسى، دار الكتاب العربي، ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٩ م.

٢٢. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي،، حدب، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م.

٢٣. صحيح الإمام البخاري. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٤. صحيح الإمام مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٥. الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

٢٦. الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلويّ، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.

٢٧. الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، مصر.

٢٨. الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل الغرازي، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢١ه.

٢٩. كتاب المصاحف لابن أبي داود السجستاني (ت: ٣١٦هـ)، تحقيق: محمد بن عبده، الناشر: الفاروق الحديثة، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٣٠. الكليات لأبي البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣١. لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٣٢. المثل السائر لابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة.

٣٣. مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

٣٤. مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن على بن الحسين بن على المسعودي، تحقيق: أسعد داغر، دار الهجرة، قم، ١٤٠٩هـ.

٣٥. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. لابن هشام ـ تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م.

٣٦. المقتضب للمبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت.

٣٧. هندسة الحوار والإقناع. د/ مصطفى يوسف كافي، دار الحامد للنشر، الطبعة الأولى ١٤٣٦ه، ٢٠١٥م.

٣٨. الوافي بالوفيات للصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت،١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.